

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

على النجدى ناصف

مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم
مالك يوم الدين إياك نعبد

دار المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٣٣]

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ناصف ، على النجدى .
مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة / على النجدى ناصف ، تقديم وجمع وتصنيف مدحت يوسف السبع .
ـ القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٩) .
مج ٢ ؛ ١٦ سم . ـ (سلسلة إقرأ) .
تدمك : ٩٧٨ ـ ٩٧٧ ـ ٠٢ ـ ٧٣٥٥ ـ ٠ .
١ ـ القرآن ، اعراب.
أ ـ السبع ، مدحت يوسف (جامع ومصنف)
ب ـ العنوان . ج ـ السلسلة
ديوى ٢٢٤,٢

رقم الإيداع ١٥٢١٤ / ٢٠٠٩ ٢٧ / ٢٠٠٩/١

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ – E-mail: maaref@idsc.net.eg

بقلم العلامة
على النجدى ناصف

مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة

الجزء الثانى

تقديم وجمع وتصنيف
د. مدحت يوسف السبع

دكتوراة فى كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين



أحلام شهرزاد – العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

تقديم

الحمد لله واهب النعم، دافع النقم، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على خير خلقه ونبيه، محمد بن عبد الله، وبعد...

فهذا الكتاب يضم بحوثا ودراسات فى مجال الدراسات اللغوية القرآنية للعلامة الأستاذ على النجدى ناصف، أحد رجالات العلم الموسوعيين المخلصين، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ووكيل كلية دار العلوم الأسبق، طيب الله ثراه.

وقد يسّر لى الله سبحانه جمع هذه الأعمال العلمية ضمن ما جمعت من أعمال العلامة على النجدى ناصف؛ إذ عنيت بكل ما كتب وأبدع لإنجاز رسالة الماجستير التى خصصتها لدراسة جهوده النحوية والصرفية[1].

---

(١) عنوان الرسالة هو: (على النجدى ناصف وجهوده النحوية والصرفية) للباحث مدحت يوسف السبع، وقد كانت من اقتراح وإشراف الأستاذ الدكتور على أبو المكارم عميد كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، الأسبق، وقد جاءت الرسالة فى مجلدين، وقد أجيزت سنة ٢٠٠١م بتقدير ممتاز.

وقد رأيت أن أخرجها فى كتاب يجمع شتاتها بعد أن نشرها العلامة النجـدى- طيب الله ثراه- بحوثا ومقالات فرادى فى عدد من المجلات ذات الشأن، وذلك لأمور، هى:

الأول: تيسير الوصول إلى بحوث ودراسات تناقش قضايا قرآنية غاية فى الأهمية مناقشةً عزّ أن يوجد مـا يدانيها، ناهيك عن أن يطاولها، صحةَ منهج، وبراعةَ استدلال، واستقامة أسلوب.

الثانى: الوفاء بحق رجل من رجالات العلم، الذين عكفوا على تراث العربية جمعا ودرسـا، واستيعابا وفهما، فقدم بحوثا عديدة فى مجال اللغة العربية والدراسات القرآنية، وكان عضوا فى العديد من الهيئات العلمية.

الثالث: القيام بعمل لو أُمهل الأسـتاذ النجدى- طيب الله ثراه- لقام به؛ فقد نشر مقالات فى الموضوع نفسه فى فترة مبكرة من عمره، ثم عاد وجمعها فى كتاب بعنوان: (مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة)[1]، فهل علىّ من بأس إن فعلت فعله، واقتفيت أثره فيما أخرج بعد ذلك من مقالات وبحوث؟

لقد رحت أجمع شتاتها، وأؤلف بينها، وقدمت لها بمقدمة تكشف عن جوانب شـخصية الأستاذ النجدى- طيب الله ثراه- ومبينا أعماله:

---

(١) خرجت طبعته الأولى عن دار المعارف سـنة ١٩٤٨م، وقد أعددته الجزء الأول والجزء الثانى هو هذا الذى قمت بجمعه.

جمعاً وتصنيفًا وترتيبًا، وقد ارتضيت أن تحمل اسم الجزء الثانى، على أن يكون الجزء الأول ما أخرجه الأســتاذ النجدى بنفسه من قبل. رحم اللهَّ الأستاذ الجليل العلامة على النجدى ناصف، وأجزل له عطاءه جزاءَ ما قدم للعربية من عمل.

د. مدحت يوسف السبع

أولا - التعريف بالأستاذ على النجدى ناصف

اسمه: هو على النجدى ناصف.

مولـده: ولد على النجدى ناصف فى نهاية العقد العاشـر من القرن قبل الماضى سنـة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م[١]، أيامَ أن كان الأبناء بمضيعة من أمرهم، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعا إلا من رحم الله. كان الآباء يتولون عنهم الاختيار، ويرون لهم الرأى، وكانوا يأخذون بأيديهم إلى المسـتقبل الذى يريدونه لهم، ثم يدفعونهم دفعا، شاءوا أم لم يشاءوا، دون أن يعرفـوا للموهبة قـدرا أو يقيموا للرغبة وزنـا، فإن نجـحوا فللآبـاء الفضل، وإن كانت الأخرى فعلـى الأبناء الوزر، لا تقبل منهم معذرة، ولا تنفعهم شفاعة.

تعليمـه: حفظ القـرآن الكريم صغـيرا، وبدت فيـه نجابة فأُلحق بالتعليم الأزهرى، ثم التحق بمدرسـة دار العلوم، وتخرج فيها سـنة ١٩٢١م[٢].

---

(١) العلاونـة: ذيـل الأعلام. ود. شـوقى ضيف: كلمة فى تأبين الأسـتاذ على النجدى ناصف: مجلة مجمع اللغة العربية: ٤٩/ ٢٢٨.

(٢) العلاونـة: ذيـل الأعلام. ود. شـوقى ضيف: كلمة فى تأبين الأسـتاذ على النجدى ناصف: مجلة مجمع اللغة العربية: ٤٩/ ٢٢٨.

وظائفه: اشتغل بالتدريس فى المدارس الحكومية ومدارس المعلمين الأولية التى كانت تخرج المعلمين للأجيال الناشئة فى القطر، ثم انتقل بعد ذلك إلى التفتيش، وظل فى أثناء عمله به يتابع نشر البحوث اللغوية والأدبية فى صحيفة (دار العلوم) منذ ظهرت فى الثلاثينات من القرن العشرين إلى أن توقفت عن الصدور فى أخريات الحرب العالمية الثانية[1].

ثم اختير مدرسا في دار العلوم سنة ١٩٤٣م، وظل يمارس العمل فى دار العلوم حتى صار أستاذا، ثم انتخب وكيلا لها، ولما بلغ سن التقاعد عين فيها أستاذا غير متفرغ.

ثم اختير عضوا فى لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ثم انتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٣م.

وفاته: توفى الأستاذ على النجدى ناصف فى شهر ربيع الأول ١٤٠٢هـ الموافق شهر فبراير سنة ١٩٨٢م بالقاهرة[2].

---

(١) العلاونة: ذيل الأعلام. ود. شوقى ضيف: كلمة فى تأبين الأستاذ على النجدى ناصف: مجلة مجمع اللغة العربية: ٤٩/ ٢٢٦.

(٢) العلاونة: ذيل الأعلام. ود. شوقى ضيف: كلمة فى تأبين الأستاذ على النجدى ناصف: مجلة مجمع اللغة العربية: ٤٩/ ٢٢٦.

صفات الأستاذ على النجدى ناصف النفسية:

لقد كان- رحمه الله- متواضعا، ممعنًا فيه، وإن كلمته التي ألقاها أمام أعضاء مجمع اللغة العربية القاهرى فى حفل استقباله عضوا تكشف عن هذا فى وضوح وجلاء، يقول: «وما أعلم أنى من المزية الفائقة، ولا الشهرة العاملة، ولا أنهما منى في شىء، لا أقولها رياءً خادعا، ولا تواضعا كاذبا، فما بي من حاجة إليهما فى هذا المقام، ولكنها الحقيقة لا اهتضام لها، ولا مواربة فيها»[1].

ويقول كذلك: «وإن امرأ لا تسعده أداته، وترفده روافده لحقيق أن يشقى به أعوانه، وأن تشق عليهم المساعاة له؛ لذلك طال على أصحابى الاستفتاح، ولج بهم الإيذان... ولست أدرى أكان ذلك عن رضا واقتناع، أم عن ضيق بالمعاودة والتكرار؟»[2].

وكان قويا فى الحق، لا يتركه للومة لائم، يتضح هذا من موقفه من الدكتور طه حسين عندما دعا إلى إلغاء (دار العلوم)، بعد أن استعصى عليه ضمها إلى الجامعة، يقول: «هذه هى آثاره العلمية دونك فاقرأها

---

(١) على النجدى ناصف: كلمة فى حفل استقباله عضوا فى المجمع، مجلة مجمع اللغة العربية: ٣٤/ ١٧٠.

(٢) على النجدى ناصف: كلمة فى حفل استقباله عضوا فى المجمع، مجلة مجمع اللغة العربية: ٣٤/ ١٧١.

كتابا كتابا، وارجع البصر فيها موضوعا موضوعا، ثم قل لى عادلا رزينا: هل ترى فيها إلا آثارا هشة، لا أثارة فيها لتفكير عميق، أو رأى سديد، أو تحقيق لمشكلة، أو حل لعقدة.

هل ترى فيها غير موضوعات فارغة، تقوم على تكرار العبارات، وإزجاء المترادفات، ومداخلة المعانى، وإرسال الرأى على عواهنه فى غير تقية من دقة أو روية، ولا سند من منطق أو حجة، إلا مثل قوله: لا أعلم أن...، وأكاد أزعم أن...، ولا أدرى لماذا لا يكون... نعم إنك لا ترى للدكتور إلا مؤلفات تقرؤها للتسلية والترفيه، لا للدراسة والإفادة، ثم تلقى بها جانبا وأنت لا تفكر فى معاودتها، ولا تتوقع أن يصادفك فى الحياة شىء يحملك على معاودتها أو الرجوع إليها أو الاقتباس منها.

إننا ولا شك فى حاجة إلى أدب التسلية والترفيه نقدمه إلى الخليين من أهل الفراغ، يتفرجون به كما يتفرج ذو السآمة الملول بجلسة فى شرفة دار[1]، أو إطلالة من نافذة قطار، ولكن لا شك أيضا أن ليس هذا من الأدب القيم فى قليل ولا كثير، وليس لصاحبه فضل مذكور على

---

(١) جاءت فى مخطوطة المقال مكتوبة هكذا (دار)، ولعل القافية التى بعدها تدل على أن الصواب ما أثبته البحث، وهو: (دار) ولعل فى هذا الخطأ فى الكتابة دليلا على تحفزه، والتهاب عاطفته، وسماحة طبعه أيضا، فطبعه السمح يعوقه عن متابعة اندفاق الألفاظ على ريشة قلمه.

الثقافة والأدب، إلا إذا اعترفنا بمثل هذا من قبل للروايات السوقية، والصحف السخيفة الماجنة[1].

شهادات بعض علماء عصره له:

قد بذل الأستاذ النجدى قُصارى جهده فى خدمة العربية، تدريسًا وتوجيها، وبحثا وتأليفا، على مدى عمر بارك اللهً فيه، فجمع بين طول المكث، وعلو الهمة، وغزارة الإنتاجِ.

وقد كان- طيب اللهً ثراه- طليعةَ المدافعين عن العربية ضدَّ الحملات الشعواء التى شُنت عليها، فى أصولها وسماتها.

ولقد كان- رحمه اللهً- ذا شخصية جليلة القدر، شامخة الذروة، متعددة الجوانب، وفيرة الخصب، غزيرة الإنتاج. ويوم يُكتب تاريخ النهضة الحاضرة فى الثقافة والتعليم سيكونُ الأستاذ على النجدى ناصف- غير ظن- من معالمها الشاخصة، ودعائمها الراسخة؛ بما قدم لها من فيض علمه، وواسع خبرته.

وقد كان له عند علماء عصره وباحثيه منزلةً كبيرة، ومكانة عالية فى مصر وخارجها، وهذه بعض شهادات العلماء والباحثين المعاصرين له:

---

(١) على النجدى ناصف: دار العلوم والدكتور طه حسين، لم أهتد لموضع نشر هذا المقال، المخطوط: ص٦.

يقول الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن كتاب (الاستذكار) لابن عبدالبر: «وقد انتدب لتحقيق هذا الكتاب أستاذنا العالم الحجة الأستاذ على النجدى ناصف.»[1] ويقول أيضا: «الأستاذ على النجدى ناصف أحد أساتذة هذا الجيل، وإمام من أئمة الأدب، وأبحاثه في قضايا اللغة والنحو سائرة معروفة، وقد سبق أن حقق كتاب (المحتسب في توجيه شواذ القراءات) لابن جنى، و(الحجة) لأبى على الفارسى، فرأينا منه ما شاء الله من خبرة بالتحقيق، ومعرفة بأسرار اللغة، واقتدار على فهم النصوص، ومذهب نافع معتدل في التعليق ما مكن للناس من الانتفاع بهذين الكتابين الجليلين.»[2].

ويقول الدكتور مهدى علام: «سلام على السماحة والسجاحة والفصاحة، سلام على صاحب الرأى الراجح والعلم الثبت فى هدوء النسيم.»[3].

ويقول الأستاذ محمد شوقى أمين: « إنه يكتب النحو كما يكتب الجرجانى البلاغة، وكما يكتب ابن جنى النحو»[4].

---

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم: الاستذكار: ١/ ٦.

(٢) محمد أبو الفضل إبراهيم: الاستذكار: ١/ ٦.

(٣) مهدى علام: : المجمعيون فى خمسين عاما: ص: ك.

(٤) محمد شوقى أمين: محاضر جلسات المؤتمر ٤٤/ ٧٨٤.

ويقول الأستاذ محمد الفاسي: «إنه ما دام للعروبة مثل الأستاذ على النجدى ناصف فلا خوف عليها.»[1].

ويقول الأستاذ عبد الوهاب عناني: «ومني لحضرة الأستاذ الجليل والأديب الكبير على النجدى ناصف تحية ملؤها الإعجاب والتقدير.»[2].

ويقول الدكتور شوقى ضيف: «لقد أخلى الأستاذ على النجدى ناصف في المجمع مكانا لا يُسد أبدا.» ويقول أيضًا: «كيف يوارى التراب هذا الجسد الطاهر، بل هذا العلم الشامخ من أعلام العربية.»[3].

ويقول الأستاذ أحمد الشرباصي عنه وعن كتاب (الدين والأخلاق في شعر شوقى): «فالكتاب قيم، والبحث ممتع، والمؤلف ذو باع.»[4].

ولئن كان بعض الأعلام حقيقًا أن يُدرس لسيرته وحدها، أو لآثارها وحدها- فإن الأستاذ على النجدى ناصف حقيقٌ بأن يُدرس لهما معا.

□□□

(١) محمد الفاسي: محاضرات جلسات المؤتمر ٤٣/ ٢٣٧

(٢) عبد الوهاب عناني: الأخلاق في شعر شوقي: ص٢١.

(٣) شوقي ضيف: كلمة في تأبين الأستاذ على النجدى ناصف: مجلة مجمع اللغة العربية: ٤٩/ ٢٢٠.

(٤) أحمد الشرباصي· الدين والأخلاق في شعر شوقي: مجلة الكتاب العربي: العدد (١١): ص٣٥.

ثانيا - أعمال الأستاذ على النجدى ناصف العلمية

من أخص صفات أعماله العلمية أربع صفات، هى:

١ - كثرة هذه الأعمال كثرة واضحة.

٢ - تنوع موضوعاتها.

٣ - تنوع الفنون التى تنتمي إليها، فقد تنازعت أعمال الأستاذ على النجدى ناصف عدة فنون، هى: التأليف، والتحقيق، والمراجعة، والإبداع.

٤ - تعدد وسائل نشرها، ما بين مجلة متخصصة وكتاب علمى وصحيفة سيارة، داخل مصر أو خارجها.

فقد جمع للأستاذ على النجدى ناصف بين التفرغ والجد وطول البقاء، فجاء إنتاجه العلمى غزيرا متنوعا، شمل: النحو، والصرف، واللغة، والدراسات القرآنية، والأدب، وتجاوزها جميعا إلى المشاركة فى بعض القضايا العامة.

وقد جاءت أعماله شاملة:

١ - المؤلفات، وتشمل: اللغة، والأدب.

٢ - البحوث والمقالات، وقد صنفتها إلى أربعة قوائم، تشمل: اللغة، والدراسات القرآنية، والأدب، والاجتماعيات.

٣ - المحققات، وهي نوعان، هما: ما حقق تحقيقا منفردا، وما حقق بالاشتراك.

٤ - المراجعـات، وقد جاءت متنوعـةَ الموضوعات، فهي بين خاصة بالدراسـة اللغوية في القرآن الكريم، وبين معاجم في معاني الحروف خاصة، وأخرى في اللغة عامة.

٥ - الإبداعات، وتشمل: الشعر، والنثر.

ودونت أعماله حسب ما سبق من فنون:

أولا- المؤلفات:

(أ) اللغـة:

١ - سيبويه إمام النحاة.

٢ - من قضايا اللغة والنحو.

٣ - أبو الأسود الدؤلي.

٤ - تاريخ النحو.

٥ - مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة.

(ب) الأدب:

١ - الدين والأخلاق في شعر شوقي.

٢ – ابن قيس الرقيات شاعر السياسة والغزل.
٣ – دراسة فى حماسة أبى تمام.
٤ – القصة فى الشعر العربى حتى نهاية القرن الثانى الهجرى.
٥ – المطالعة الوافية.

ثانيا- البحوث والمقالات:

(أ) الدراسات القرآنية:

١ – نحو القرآن (تعريف ونقد).
٢ – من أسرار القرآن.
٣ – التنبيه فى القرآن الكريم.
٤ – الزيادة فى القرآن الكريم.
٥ – من الدراسات القرآنية.
٦ – بين السمع والبصر فى القرآن الكريم.
٧ – من أسرار الزيادة فى القرآن الكريم.
٨ – من تصريف الضمير فى القرآن الكريم.
٩ – بين مرضعة ومنفطر فى القرآن الكريم.
١٠ – من وحى الزيادة فى القرآن الكريم.
١١ – من الدراسات النحوية فى القرآن
١٢ – من أسرار القرآن الكريم.

(ب) اللغة:

١ - اللغة العربية لماذا أصيب الطلبة بالضعف فيها؟
٢ - الفصحى وكيف نشد أزرها.
٣ - الدلالة والإلقاء.
٤ - من خصائص العربية: المرونة.
٥ - العامية والفصحى.
٦ - فى المجمع اللغوى.
٧ - المدمس أو المدمث.
٨ - بين القراء والنحاة.
٩ - فلسفة الضمير.
١٠ - رأى فى اسم الفعل.
١١ - المدارس النحوية (تعريف ونقد).
١٢ - الفارسى فى الإغفال.
١٣ - تعقيب على مقالين.
١٤ - سار عبر البحار.
١٥ - من ذى قبل.
١٦ - كل عام وأنتم بخير.
١٧ - ملحق بمذكرة أسلوب كل عام وأنتم بخير.
١٨ - بين الكفاءة والكفاية، وبين الكفء والكافى.

١٩ – كان نظامنا التعبوى دقيقًا محكما.
٢٠ – وأخيرا... وليس آخرا.
٢١ – جمع نية على نوايا.
٢٢ – أول أمس وأمس الأول.
٢٣ – سويا.
٢٤ – ما يقرب وما يزيد.
٢٥ – بوصفى أو بصفتى عربيا أرى كذا.
٢٦ – سارت المفاوضات خطوة خطوة.
٢٧ – سارت المفاوضات خطوة بخطوة.
٢٨ – اتبع فى المفاوضات سياسة الخطوة خطوة.
٢٩ – صاروخ أرض أرض.
٣٠ – صاروخ جو جو، صاروخ أرض جو، صاروخ جو أرض، صاروخ الأرض جو.
٣١ – ما كدت أدخل حتى استقبلنى رب الدار بالترحاب.
٣٢ – عود إلى أسلوب لم يكد الضيف يدخل حتى استقبله رب الدار بالترحاب.
٣٣ – بين الفصحى والعامية.
٣٤ – حول الدراسات النحوية.
٣٥ – معاجمنا فى الميزان (المعجم الكبير).

٣٦ – سواء أو سيان كذا أو كذا، لا خلاف بين هذا أو ذاك.

٣٧ – لعب دورًا.

٣٨ – يلعب الكرة.

٣٩ – أمعن في النظر، وأنعم النظر.

٤٠ – بينما.

٤١ – أكدت المدرسة على مواظبة التلاميذ، أكد الخبير على أن التوقيع مفتعل.

٤٢ – التصفية.

٤٣ – الأنشطة.

٤٤ – هذا عامل كسول.

٤٥ – ما هي الأسباب؟ ما هو رأيك؟ ومن هو مؤسس مصر الحديثة؟

٤٦ – ملحق (١) بمذكرة أساليب ما هو رأيك؟ ومن هو مؤسس مصر الحديثة؟

٤٧ – ملحق (٢) بمذكرة أساليب ما هو رأيك؟ ومن هو مؤسس مصر الحديثة؟

٤٨ – ملحق (٣) بمذكرة أساليب ما هو رأيك ؟ ومن هو مؤسس مصر الحديثة.

٤٩ – مصر تشجب حرب العراق وإيران.

٥٠ – الاستشعار من بعيد.

٥١ – تغطية.
٥٢ – دعم يدعم دعما، دعم يدعم تدعيما.
٥٣ – بين الدعم فى لغة المعاجم ومعناه فى لغة العصر.
٥٤ – جرد العهدة.
٥٥ – الحركة النسبوية.
٥٦ – أصداء لنحو الكوفة فى شعر المتنبى.

(جـ) الأدب:

١– أبو الطيب المتنبى، هل ادعى النبوة حقا؟
٢ – الأدب الماجن.
٣ – المتنبى عند سيف الدولة.
٤ – المتنبى شابا.
٥ – ثقافة المتنبى.
٦ – المتنبى فى مصر.
٧ – الشعر الحديث.
٨ – الخطابة.
٩ – القصة فى الأدب العصرى.
١٠ – ديوان الجارم.
١١ – أمير الشعراء: أحمد شوقى بك.

١٢ – هل جنى الشعر الجاهلى على الأدب العربى؟.
١٣ – وطنية المتنبى.
١٤ – التمثل فى الأدب العربى، وحظ شعر المتنبى منه.
١٥ – بين الآمدى وأبى تمام.
١٦ – من ملامح الشعراء فى شعر الجارم.
١٧ – سيدة القصور.
١٨ – شخصية امرئ القيس.
١٩ – الأخلاق فى شعر شوقى.
٢٠ – الأخلاق فى شعر شوقى: رد على نقد.
٢١ – أغاريد السَّحر.
٢٢ – قصص الجارم بك.
٢٣ – مع صعاليك العرب.
٢٤ – التعقيد فى شعر المتنبى.
٢٥ – الشاعر الطموح.
٢٦ – الأدب العربى المعاصر.
٢٧ – اتجاه الإنتاج الأدبى.
٢٨ – غادة رشيد.
٢٩ – الإسلام والشعر.
٣٠ – بين السينيتين.

٣١ – من قصص الاستطراد.
٣٢ – خزانة الأدب.
٣٣ – الشعر الحر.
٣٤ – أدب الحياة بين الفصحى والعامية.
٣٥ – مواقف مع المتنبى.
٣٦ – من لوازم الأدباء.
٣٧ – أبو دهبل الجمحى.
٣٨ – القصة فى الأدب العصرى.

(د) الاجتماعيات:

١ – تفتيش التعليم الإلزامى.
٢ – الزواج: معناه والاحتفال الفاروقى به.
٣ – العصبية فى وزارة المعارف.
٤ – التعليم الإلزامى فى المحافظات.
٥ – رحلة إلى الواحات البحرية.
٦ – فى التعليم الإلزامى.
٧ – الأستاذ الجليل الشيخ محمد الحسينى.
٨ – الإسلام والمدنية الغربية.
٩ – فى وزارة المعارف.

١٠ – شيب وشبان.
١١ – لو أنصف الناس.
١٢ – من الملوم.
١٣ – منظر.
١٤ – وا رحمتا للآباء.
١٥ – هؤلاء الناس.
١٦ – جزاء الإحسان.
١٧ – مصر فى أبنائها.
١٨ – نية المرء.
١٩ – المفطرون.
٢٠ – من معانى الصوم.
٢١ – استهتار المفطرين.
٢٢ – كلمة فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية.
٢٣ – كلمة فى تأبين الأستاذ الشيخ عطية الصوالحى.
٢٤ – كلمة فى تأبين الأستاذ محمد رفعت أحمد.
٢٥ – كلمة فى استقبال الأستاذ محمد عبد الله عنان.
٢٦ – كلمة فى تأبين الدكتور إبراهيم أنيس.
٢٧ – كلمة فى تأبين الأستاذ عباس حسن.
٢٨ – كلمة فى استقبال الدكتور الشيخ محمد رفعت فتح الله.

٢٩ – مثال لغبن الموظفين.

٣٠ – المقطعة.

٣١ – مزيد من المزعجات.

ثالثا- المحققات:

وهي نوعان: المنفرد، والمشترك.

(أ) المنفرد:

١ – الجزء الثامن عشر من كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.
٢ – مجلدان من كتاب «الاستذكار» لابن عبد البر.
٣ – الجزء المتم للعشرين من كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.
٤– ديوان أبي مسلم البهلاني.
٥– الجزء الثالث من «لسان العرب» لابن منظور.

(ب) المشترك:

١ – الجزءان: الأول والثاني من كتاب «الحجة» لأبي علي الفارسي.
٢ – كتاب «المحتسب» لابن جني.

رابعا- المراجعات:

وهي نوعان: منفرد، ومشترك.

(أ) المنفرد:

١ – الجزء الأول من كتاب «التنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح» لابن برى.

٢ – كتاب «الإبدال» لابن السكيت.

٣ – الجزء الثالث من كتاب «معانى القرآن» للفراء.

٤ – كتاب «معاني الحروف» للرماني.

(ب) المشترك:

١ – المعجم الوسيط.

٢ – معجم ألفاظ القرآن الكريم.

٣ – المعجم الوجيز.

خامسا– الإبداعات:

للأستاذ على النجدى ناصف إبداعات فى مجالى الشعر والنثر، ففى مجال الشعر له عدد كبير من القصائد غير المنشورة، وفى مجال النثر عثرت على قصة قصيرة له بعنوان: (الكنود أو إبراهيم)، وفيها من الأصول الفنية الكثير، مما يدل على أنها ليست المحاولة الأولى، ولا الوحيدة. وأسأل الله سبحانه أن أوفق إلى نشر إبداعاته مستقلة مستقبلا.

□□□

ثالثا - منهج العلامة على النجدى ناصف في النظر إلى المتشابه من آى القرآن الكريم

العلامة

الأســتاذ على النجدى ناصف ممن لزم كتــاب الله تعالى تلاوة وحفظــا، وتدبرًا وفهمًا، مكنه من أن يكون له منهج ذو ملامح خاصــة، يقول: «فقد قُــدّر لى أن يكونَ القرآن أولَ مــا أحفظ من كلام، وأســبقَ ما حصلت من معارف، وأن تتيســر لى الأسباب لإجادة حفظه وإتقان تلاوته، حتى ما أكاد أقصر فيهما عن الغاية فى استقامة الأداء، والأخذ فيه على نهج الأصول المأثورة والأحكام المقررة.

ودعانــى الأنــس به أن أتخذ منــه رفيقاً ملازماً، أتلــو منه كل يوم حزبًا، غير مغبه ولا غافل عنه، وزادنى ملازمة له وإقبالا عليه أنى من المنقطعــين للعربية، تعليما لها وبحثــا فيها، وما كان لمثلى- على هذه الحــال- أن يخفى عليه مكان القرآن من العربية، ولا مبلغ المتخصصين فيها من الحاجة إليه، اقتباساً منه، واعتمادا عليه فى مطالبها المتعددة، فليس كمثله غزارة مدد، ولا استقامة هدى ورشاد.

ثم حُببت إلىّ الاســتزادة منه، فأقبلت عليه أدير من حوله دراسات متأنية، أســتلهم الله فيها، وأستعينه عليها، غيرَ مدخر فيها جهدا، ولا ضنــين عليها بوقت، منها ما يدور على بعض موضوعاته وقضاياه،

ومنها ما يدور على آيات منه لا تأخذ فى أساليبها على مقتضى الظاهر، وما من قارئ مستبصر يقرؤها دون أن يقف عليها متسائلا عن معانيها يود لو هُدى إليها، ووقع على المكنون من أسرارها.»[1].

ويقول أيضا: «يعلمُ الذين يتلون القرآن الكريم أنه يأخذ أحياناً فى التعبير على مقتضى الظاهر، فإذا بيانٌ باهر كأنه الصبح وضوحا وإشراقا، وأنه يذهب حينًا آخر مع المعنى؛ حفاوةً به، وإيثارا له، فإذا ضروبٌ من الخلاف في التعبير لما يقضى به الظاهر من الأحكام، فجمع بمكان المفرد، ومفرد بمكان المثنى أو الجمع، وإذا خلافٌ بين الضمائر وما ترجع إليه، إلى ضروب أخرى من الخلاف.

ولعمرى ما هذا التخالف فى صوره المتعددة إلا معالم شاخصة، يقيمها التنزيل الحكيم مواقف تدبر وإمعان، وليس بملك القارئ المستبصر حيالها إلا أن يقف عليها، وينظر فيها، لعله يظفر منها بنفحات من غيبه، أو ومضات من نوره تهديه إلى الوجه، وتكشف له عن السر.»[2].

إذن لقد حُبّب إلى الأستاذ على النجدى ناصف النظر فى بعض الآيات المتشابهة، فأقبل على دراستها، فوجد أنها قد لاقت من علماء التفسير وفقهاء العربية عناية واهتماما، غير أنهم كانوا يعولون على علوم اللغة وحدها، لا يلتمسون من غيرها عونا. فرأى أن هذا المنهج

---

(١) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ٥، ٦.

(٢) على النجدى ناصف· مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ١٤.

يعجز عن استكناه سر هذه الآيات «وإذن يكون التعويل على علوم اللغة وحدودها قصورا، لا يؤمن معه التكلف والاعتساف.»[1].

وقد خطّ العلامة على النجدى ناصف لنفسه منهجا للنظر فى متشابه آى القرآن، وبمدارســة كتاباته جميعاً اســتطعت أن أستخرج السمات العامة لمنهجه، وهى:

١ - الرجوع إلى علوم اللغة:

لا شــك أن لعلوم اللغة دورا كبيرا فى فهم آى الكتاب؛ لأنها قانون العربيــة التى هى الأداة التى اختارها الله تعــالى لتكون حاملة لكلامه الكريم إلى عبــاده، وفى هذا يقول: «وقد لاقت هذه الآيات المتشــابهة حقها من عناية أســلافنا المكرمين من علماء التفسير، وفقهاء العربية: عكفوا عليها لا يألونها درساً وبحثا، غير أنهم كانوا- فى جملة الأمر- يُعوِّلون فى ذلك على اللغة، يستفتون علومها، ويحتجون بشواهدها، لا يكادون يعدلون بها بدلا، أو يلتمسون من سواها عونًا.

ولعلوم اللغة فى هذا المقام شــأن مذكــور، ومقام معلوم، لا مراء ولا خلاف، لأنها هى قانون العربية والمعيار عليها. والعربية هى اللســان الذى اختاره الله تعالى لكتابه الكريم.»[2].

---

(١) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ١٤، ١٥

(٢) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص ١٤

ومن ثم أرجع قصور اللغويين والمفسرين فى تفسير بعض آى القرآن إلى اعتمادهم على اللغة واللجوء إليها دون سواها، يقول: «وما أظن إلا أن المفسرين قد سكتوا عن ذلك وفى نفوسهم منه شىء، ولكن ماذا عسى أن يصنعوا أكثر مما صنعوا، وقد ألفوا فى دهرهم الطويل أن يكلوا إلى اللغة وحدها أكثر ما يحزبهم من مشكلات التفسير؟»[1].

وقد أخذ على الخليل وقوفه عند حدود اللغة عندما عرض لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾[2]، وقال: «فقد نظر إليها نظرة لغوية مجردة... ولم يبين سر الاستعمال فى الآية.»[3].

وكذلك أخذ على الزمخشرى وقوفه عند حدود علوم اللغة عندما عرض لتأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[4] حيث يقول: «وهذا توجيه لغوى مجرد، لاحظ له من أسرار البلاغة ولطائف الإشارة.»[5].

وأخذ على سيبويه والفراء والزمخشرى وأبى حيان وقوفهم عند حدود علوم اللغة، يقول: «وعندى أن هذا الذى قالوه- على نفاسته

---

(١) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص٦٢.

(٢) سورة ص الآية ٢١.

(٣) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص١١٥.

(٤) سورة الشعراء الآية ١٦.

(٥) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص١١٨، ١١٩.

وجلالة قدره- لا ينفع من غلة، ولا يهدى من حيرة، فليست المشكلة في صميمها من اللغة، وليس الذى نشتد في طلبه أن نجد وجها من الرأى يقنع بأن تذكير الضمير راجع إلى الأنعام جار على سنن العربية واقعا، وإن كان جاريا على خلافها ظاهرا، ولكن الحقيقة التى نطلبها، ونرتجى الاهتداء إليها هى السر الذى ينطوى عليه تذكير ضمير الأنعام فى سورة (النحل) خاصة، مع تأنيثه فى جميع الآيات التى ذكرت فيها، ولا سيما آية (المؤمنون)، على ما فيهما من تشابه كبير، يكاد يجعل منهما آية واحدة وردت فى موضعين مختلفين.»[1].

٢ - الرجوع إلى القرآن الكريم نفسه:

ينظر فى آياته عاقدا الصلة بينها، مستوحيا منها ما ترمى إليه، وما يحقق لها اتساقها معا من جهة، ومع ما سيقت من أجله من جهة أخرى، وفى هذا يقول: «والعربية هى اللسان الذى اختاره الله تعالى لكتابه الكريم، لكنها ليست هى المرجع الوحيد فى كل مقام، فهناك أولا القرآن نفسه، وليس كمثله فى تأويل المتشابه، وتفسير المُشْكِل فى مواطنَ منه شتى. وإذن يكون التعويل هنا على علوم اللغة وحدها قصوراً لا يؤمن معه التكلف والاعتساف، فإذا التأويل بعيد، والمعنى

(١) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص١٤٩، ١٥٠.

معــه هزيل، وإذا الذوق والإحســاس مهملان، كأن ليس لهما من الأمر شــىء، ولا لهما فيه عمل أصيل، كيف؟ وهما منــاط المتعة والارتياح، وعدة التأثر والانفعال.»[1].

وكذلــك يقــول: «والرأى عندى أنه حين لا تســعف اللغــة بالرأى السديد فى شيء من أساليب القرآن أن ندع اللغة ونحوها جانبا، ونفزع إلى القرآن نفسه نستعينه ونستهديه.»[2].

ويقول أيضا: «ولقد كان خيرا للمفســرين وأجدى عليهم أن يرجعوا إلى القرآن نفســه، عسى أن تلوح لهم منه ومضة من نور، أو تلقى إليهم أثارة من علم.»[3].

٣ـ الرجوع إلى واقع الحياة وسنن الوجود:

وهو يعنى بهذا الاســتعانة بالواقع المعاش فى وقت نزول القرآن أو فى سواه، وبقوانين الكون الثابتة فى فهم آى الكتاب.

وهذه الدعامة الثالثة تشــترك مع الدعامة الثانية (القرآن نفسه) فى المقام ذاته. فالناظر فى هذه الآيات ليقف على مكنونها يرجع إلى القرآن نفسه مصطحبا واقع الحياة، وسنن الوجود، وقوانينه.

---

(١) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص١٤.

(٢) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص١٥٥.

(٣) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص٦٢.

وفى هذا يقول: «ومن ثم هناك مع القرآن فى هذا المقام واقع الحياة، وسنن الوجود.»[1].

وإنه مع ذلك ليقول: «والحمد لله، لقد فتح الله عليّ بنفحات من غيبها، وهدانى إلى كثير مما نازعتنى النفس إليه، التماسا له، وجدًّا فيه.

وإنى لأعلم علما ليس بالظن أنى مهما أوتيت بهذه المحاولة من نجح، وأدركت من بغية، فلن يكون ما بلغت من القرآن إلا كنُغْبة طائر أو بلة إصبع من فيضه الزاخر، لكنها دعوة ربنا- جل وعلا- إلى تدبره، تستهوينى الاستجابة لها، وذلك إذ يقول سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[2] وسيظل القرآن أبدًا مجال بحث ومطلب درس، لا ينضب معينه، ولا ينقطع سببه، مهما طالت القرون وتوالت الأجيال، ومهما بلغ الرقى بالإنسان فى درجات الكمال، ومهما حلق به العقل فى آفاق من فنون المعرفة فوق آفاق.»[3].

وقد كان ما وصل إليه من جديد رأى أحدَ أمرين «ولقد حُبِّبَ إلى أن أدرس آيات من هذا القبيل، جهدت فيها جهدى، وآتيتها حقها من الروية

---

(١) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص١٥.

(٢) سورة النساء الآية ٨٢.

(٣) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص٦.

والأنــاة، فَهُدِيت فيها إلى أوجه من الــرأى، منها ما أوحت به ووجهت إليه القراءة والمراجعة، ومنها ما هدى الله إليه بالبحث والاجتهاد.

فأمــا الأول فقد عرضتُ آراء الأولــين فيه كما رأَوها، واحتجوا لها، ثــم أقبلت عليها بالنقد الرفيق والتمحيص الدقيق، لا أبخس حقا، ولا أجحد فضلا، ثم خلصت من هذا بالرأى الذى أرتضيه وأطمئن إليه، وأما الآخر فلا فضل لى فيه، وإنما الفضل كلُّه لله، هو ســبحانه الهادى إليه والموفق فيه، وليس لى منه إلا الحديث عنه. ولا على أن يكون الله تعالى قــد خصنى به، أو أن أكون مســبوقا إليه، فالله هو وحده صاحب الفضل فيه على الحالين.»[1].

هذه هى الســمات العامــة لمنهج العلامة علــى النجدى ناصف فى النظر فى متشــابه آى القرآن الكريم كما اتضحت لى من خلال مدارسة كتاباته جميعا.

□□□

(١) على النجدى ناصف: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة: ص١٥.

رابعا- البحوث والدراسات

١ - بين القرّاء والنحاة[1]

كان للنحـــاة- ولا يزال لهم- نوع من الرقابة على اللغة، بفضل انقطاعهم لها، وتمرســـهم بأسـاليبها إعرابا وبناء، وبنية ومادة، وصياغة وتأليفا، حتى ســاروا بحق أمناء ســرها؛ وســدنةَ بيتهـــا، ونقدةَ معدنها. وكان نصيب الشـــعر من درســـهم ومآخذهم أكبر من نصيب النثر؛ لأن للشـــعر من القيود والمآزق ما ليس للنثر، والشـــاعر يملك من التصرف في وجوه القول والافتنان في التعبير ما لا يملك الناثر.

ولم يَثنهـــم عن الجهـــاد في اللغة أن ضاق الشـــعراء بهـــم وكرهوا مكانهم، فجعلوا يهجونهم، ويســـخرون منهـــم، ويتهمونهم بخطل الفهم وفســـاد الـــذوق[2]، ولكنَّهم مضوا قدما لا يَلْوُون على شـــيء، ولا يأبهون بشـــيء؛ تبليغا للرســـالة، وأداء للأمانة، فضربوا للناس مثلا طيبا في الإيمان بالواجب والإخلاص للعلم واحتمال الأذى فيه.

---

(١) نشر هذا البحث في: مجلة اللغة العربية، ج١٧/ ٣٧، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

(٢) انظر في هذا: كتاب سيبويه إمام النحاة لكاتب هذا المقال الصفحة ١٥- ٢٠.

ولم يفتهم أن ينقدوا قراءات القرآن، كما لم يفتهم أن ينقدوا أساليب البيان الأخرى، فالقرآن آية الله البالغة ومعجزة نبيه الخالدة على الزمان، ومن حقه عليهم أن يتصدوا لقراءاته بالنقد والتمحيص؛ ليبينوا كل ما عسى أن يشوبها من ضعف الرواية أو شذوذ اللهجة، لا يصدهم عن السبيل أن يتقول متقوّل بما ليس فيهم، أو يزعم زاعم أنهم بما يفعلون من ذلك إنما يَعْدُون طورهم، ويتكلفون ما ليس من شأنهم، بل يتطاولون إلى أسمى من متناولهم؛ خضوعًا لقواعدهم واحتكامًا إلى قوانينهم، كأن القراءات لا مدخل للعربية فيها، أو كأن النحاة ليسوا من العربية ولا العربية منهم فى شيء، وكأنهم افتعلوا النحو افتعالا أو ابتدعوه انتحالا، لم يرجعوا إلى أصل من أصول العربية، ولا استنبطوه من أساليبها المأثورة فى المنثور والمنظوم. وإذًا يجوز أن يُتهم النحويون فى هذا المجال بالتطاول والتكلف والاجتراء، ولا يجوز أن يظن بقارئ خطأ ولا توهم ولا سهو ولا غفلة ولا نسيان، ولا أن تؤخذ رواية بضعف أو شذوذ أو ارتياب.

وهذه أمثلة مما يقول النحاة فى بعض القراءات، وأمثلة مما يقال عنهم بسبب هذا النقد:

روى عن محمد بن مروان من قراء المدينة أنه قرأ: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾[1] بنصب (أطهر)، ورويت كذلك عن سعيد

---

(١) سورة هود الآية ٧٨.

بـن جبير، فقال أبـو عمرو بن العلاء: احتبى ابن مـروان في هذه في اللحن[1].

وقال سـيبويه عن همز لفظ النبي: «وقالوا نبي وبرية، فألزمها أهل التحقيـق البدل، وليس كل شـيء نحوهما يفعل به هكذا، وإنما يؤخذ بالسـمع. وقد بلغنا أن قوما من أهـل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبيء وبريئة، وذلك قليل رديء»[2].

وقـرأ ابن محيـض: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾[3]، بادغام ضاد (أضطره) في طائه؛ كما قالوا: اطّجع، فقال عنها الزمخشـرى: «إنها لغة مرذولة»[4].

وقرأ ابن عامر: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾[5]، فقال الزمخشـرى أيضا يعلق على

---

(١) وجـه المأخذ هنا انه أوقع ضمير الفصل بين الحال وصاحبها. وانظر الكتاب: ١: ٣٩٧ وشرح الكافية: ٢: ٣٦ وفى الكشاف (١: ٤٤٨). وقد خرج له وجه لا يكون هن فيه فصلا، وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ، (وبناتي هن) جملة في موضع خبر المبتدأ؛ كقولك: هذا أخي هو، ويكون أطهر حالاً.

(٢) الكتاب: ٢: ١٧٠، وانظر شـرح الشـافية للرضى ٣: ٣٥ وقراءة النبيء بالهمز قراءة نافع، كما فى إتحاف فضلاء البشر: ١٤٣.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٦.

(٤) إتحاف فضلاء البشر: ٩٠؛ والكشاف ١: ٧٣.

(٥) سورة الأنعام الآية ١٣٧.

قراءته هذه: وأما قراءة ابن عامر «قتلُ أولادَهم شركائهم»: برفع القتل، ونصب الأولاد، وجر الشـركاء، على إضافة القتل إلى الشـركاء والفصل بينهمـا بغير الفصل لـو كان في مكان الضرورات، وهو الشـعر، لكان سمجا مردودا؛ كما سمج وروُدُ:

زَجَّ القلوصَ أبي مزادة[1]

فكيـف به في الـكلام المنثور، فكيف به في القرآن المعجِز بحسـن نظمـه وجزالته؟ والـذى حمله على ذلك أنه رأى فـى بعض المصاحف (شـركائهم) مكتوبا بالياء. ولو قرأ بجر الأولاد والشـركاء لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب[2].

وينكـر بعض العلماء على الزمخشـرى أن يقول هذا القول عن قراءة ابـن عامـر، ويرون أنه فيه غـالٍ مجترئ، بل حائد معتسـف، حتى لَيُخشى منه على عقيدته ودينه.

فقـال أبو حيان: ولا التفات إلى قول الزمخشـرى، وأعجب لعجمى ضعيف في النحو يرد على عربى صريح محض قراءة متواترة[3].

وقال ابن المنير: لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء، وتاه في تيهاء، وأنا أبرأ إلى اللهً وأبرئ حملة كتابه وحفظة كلامه مما رماهم به،

---

(١) صـدره: فزججتها بمزجة. زجه: طعنه بالرمح. المزجة: رمح قصير كالمزراق. القلوص: الناقة الشابة.

(٢) الكشاف ١: ٣١٢.

(٣) البحر المحيط: ٤: ٢٢٩.

فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كلٌّ منهم حرفا قرأ به اجتهادا، لا نقلا وسماعا...، وأخذ يبين أن وجه غلطه (يريد ابن عامر) رؤيته الياء ثابتة فى (شركائهم)، فاستدل بذلك على أنه مجرور؛ وتعين عنده نصب أولادهم بالقياس، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معا... فهذا معتقد أهل الحق فى جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلا.. ولولا عذر أن المنكِرَ ليس من أهل الشأنين، أعنى علم القراءة وعلم الأصول... لخيف عليه الخروج من ربقة الدين[1].

ونلاحظ أن الزمخشرى لم يتفرد بنقد ابن عامر فى قراءته هذه، فقد نقدها معه ابن عطية والفارسى فيما يقول أبو حيان نفسه. فقال ابن عطية: وهذه قراءة ضعيفة فى استعمال العرب، وقال الفارسى: هذا قبيح قليل فى الاستعمال[2].

فما بال أبى حيان (عفا الله عنه) يختص الزمخشرى بالنقمة، ويرميه وحده بالضعف فى النحو؟ وما أريد بهذا أن الزمخشرى يستحق ما تناوله به أبو حيان من لوم وانتقاص، وأن العدل كان يقتضيه أن يتناول صاحبيه بمثل ما تناوله هو به أيضا، ولكن الذى أريده أن هؤلاء الثلاثة قد اجتمعوا فى قراءة ابن عامر هذه على رأى لا يرتضيه أبو حيان، ولا يراهم فيه محقين، ومع ذلك لقد كان له مع الزمخشرى

(١) الانتصاف على هامش الكشاف ١: ٣١١، ٣١٢

(٢) البحر المحيط: ٤: ٢٢٩.

شأن، وله مع صاحبيه شأن آخر، فهل لهذه التفرقة من سبب؟ من يدرى؟ وربما كان لاعتناق الزمخشرى مذهب المعتزلة مدخل فى ذلك، هو الذى حرض عليه وأباح النيل منه، وطالما جلب عليه هذا الاعتقاد من نقمة الناقمين وسخط الساخطين.

ومهما يكن من سبب فلا أعلم أن الزمخشرى كان ضعيفا فى العربية أو غيرها من العلوم التى تصدى لها بالدرس والتأليف، فكتبه قيمة كلها، تشهد له بالغزارة والتمكن، وقد كتب الله لها الخلود، ويسر الانتفاع بها على مر العصور.

وأما زراية العجمة على الزمخشرى، والإشادة بعروبة ابن عامر، ثم الإنكار على الزمخشرى الأعجمى أن يتعرض لابن عامر العربى فى شأن من شئون العربية- فزلة كنت أود لو أن أبا حيان- فى علمه وفضله- لم يتورط فيها، ولكنه الغضب (قاتله الله).

فأبو حيان حقيق أن يعلم حق العلم أن الإسلام أبطل التفاخر بالأنساب والأجناس، وأن العُجمة لا تمنع أصحاب الملكات وذوى المواهب من إتقان العربية والتفوق فيها. وهذا سيبويه أبو النحو وصاحب أعظم كتاب فيه لم يكن عربيا ولكن فارسيا كالزمخشرى. ثم إن العرب حين خرجت من عزلتها وخالطت غيرها من الأمم قد استعجمت على تعاقب الأجيال، وأصبحت كالأعاجم لا تحذق العربية بالسليقة، ولكن بالتعلم والدرس.

وأما ابن المنير فأوافقه علــى بعض قوله، وأخالفه فى بعضه الآخر.
أوافقه على أن الزمخشــرى قد جانبه التوفيق والســداد حين يقول عن ابــن عامر: والــذى حمله على أن ينصب كلمــة «أولادهم» ويجر كلمة «شــركائهم» فــى الآية أنه رأى كلمة «شــركائهم» مرســومة فى بعض المصاحف بالياء، فهذا كلام يوهم أن الزمخشرى يرى أن القراءات كانت اجتهادا لا توقيفا، والذى عليه المسلمون أن القراءة رواية، ينقلها القراء خلفا عن سلف حتى يرفعوها إلى صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

على أننى لا أرى أن كلام الزمخشــرى هنا يدل ضربةً لازم على أنه كان يرى القراءة رأيا واجتهادا، فلعل مراده أن رســم المصحف قد رجح عند ابن عامر الوجه الذى قرأ به لا أنه هداه إليه، لكن العبارة لم تواته بما يكفل له الإفصاح عن فكرته هذه على ما كان يريد.

وأخالف ابن المنير فيما يقوله عن القراءات الســبع «... أنها متواترة جملــة وتفصيلا» فإنمــا هى قراءات من القــراءات، منها المتواتر وغير المتواتر. وسيأتى لذلك مزيد بيان بموضعه من هذا المقال إن شاء الله.

وألاحــظ أن أبــا حيــان فــى (البحــر المحيــط)، وابــن المنير فى (الانتصاف)، والدمياطى فى (إتحاف فضلاء البشــر)، وكل من تصدى للرد على الزمخشــرى لم يســتطع أن ينقض كلامه عــن قراءة ابن عامر بشــاهد من الكلام المنثور، جاء فيه الفصــل بين المتضايفينِ بالمفعول به كما فى قراءة ابن عامر.

فلـم يجـدوا آخِرَ الأمر إلا أن يقولوا: « وأمـا من زعم أنه لم يقع فى الكلام المنثور مثله فلا يعول عليه؛ لأنه نافٍ، ومن أسـند هذه القراءة مثبتٌ، وهو مقدم على النفى اتفاقا»[1]

وما أحسـب أن مثل هذه الحجة يمكن أن تغنى فى مسـائل اللغة؛ فإنمـا ينبغي أن يكون مـدار الفصل فيها قبل كل شـيء على النص، إليـه يكون الاحتكام، وعليه يكون المعوَّل إثباتا ونفيا وإبراما ونقضا، ولا سـيما إذا ذكرنا أن الموسيقية القرآنية لا تتمثل فى هذه الآية على العهـد بها فى سـائر آيات الكتـاب الكريم، سمحة الآداء، متسـقة الجرس، خفيفة المئونة، تمضى بها الألسـنة فى سهولة ويسر، ومن غير تعثر ولا التواء، وتسـمعها الآذان، آنسةً بها، مطمئنة إليها فى شغف واستمتاع.

لقد اعتاد الحس اللغوى، فيما جرب من أمر هذه اللغة، أنه إذا ذكر المضـاف تلاه المضاف إليه فى غـير ريث ولا فصل إلا فى القليل النادر؛ فإذا جاء النظم على مثال نظم الآية فى قراءة ابن عامر: مضاف لا يتلوه المضـاف إليه، ولكـن المفعول به، ثم المضاف إليه مـن بعده، لم يتمالك الحس اللغوى أن يجد لذلك شـيئا مـن مفارقة وخلاف، يكلف القارئ بعض الحذر والانتباه، ويحمل السـامع على التساؤل والتماس الوجه،

---

(١) إتحاف فضلاء البشر: ١٣١.

وتنقطع على القارئ المتابعة والاسترســال، وينقطع على السامع الأنس والسكينة والاطمئنان.

وما أشبه النظم على هذه الصورة بمن يمهد للأمر ويؤذن الناس بحلول موعــده، فإذا ما انتبهوا له، وتطلعوا إليه، وأخذوا الأهبة لاســتقباله رأوا صاحبه يعرض عنه، ويأخذ في خلافه، ثم هو لا يمضي قدمًا فيما أخذ فيه، بل يكر راجعًا إلى ما كان انصرف عنه، بعد ما ضعف التأهب له، وفتر الإقبال عليه والاهتمام به.

من أجل ذلك كان قول معاوية:

نَجـوتُ وقـد بَـلَّ المُـرادىُّ سيفَــه   من ابن أبى شيخِ الأباطحِ طالبِ[1]

أيسر أداءً، وأطيب إيقاعا، وأسوغ مذاقًا من قول الآخر:

فَزَجَجْتُهــا بمزَجّـَـة   زجَّ القلوصَ أبى مزادة

لأن الأول قــد تدارك ثقل الفصل بــين المتضايفين بما يخفف وقعه، ويقلل اســتكراهه، إذ فصل بينهما بصفة المضــاف إليه، فجاء الفاصل مجانســا للمضاف إليه في حركة الإعراب، فكان من ذلك شبه تعويض حميــد، ولا كذلــك البيت الآخر، فقــد جاء في نظمــه مخالفا العرف اللغــوي، أولا من قِبَل الفصــل المذكور، وآخرًا من قبل حركة الإعراب، فثقل النطق به، ولم يطب الاستماع إليه.

---

(١) المــرادى هو عبــد الرحمن بن ملجم، قاتل الإمام على رضى الله عنه: مختصر شرح الشواهد للعينى: ٢٤٦ ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: ٢ : ١٢١.

ولعل الذى جلب كل هذه النقمة على النحاة فى نقد القراءات أنهم لا يفرقون فى النقد بين السبعية وغير السبعية، وللقراءات السبعية شهرة واسعة ليست لغيرها من القراءات، فهى عند بعضهم متواترة كلها، بل إنها عند بعض آخر هى المعنيَّة بالأحرف السبعة المذكورة فى حديث: (أُنزل القرآن على سبعة أحرف).

والواقع أن هذه القراءات فى رأى المحققين لا تعدو أن تكون كغيرها من القراءات المروية عن الأئمة الآخرين، من أمثال الأعمش ويعقوب وخلف. وليس ينطوى الاقتصار عليها وحصر العدد فيها على معنى من معانى الإيثار والتفضيل. فما هو إلا أن كانت المائة الثالثة من الهجرة حتى بدا لبعض أئمة القراء أن يتصدوا لجمع ما رووا عن السلف من وجوه القراءات ضبطا لها وحفاظا عليها، بسبب ما رأوا فى الناس يومئذ من قلة التحرُّز والضبط. ثم كان أبو بكر بن مجاهد (المتوفى سنة ٣٢٤هـ)، فتفرد على رأس الثلاثمائة بالاقتصار على السبعة المعروفين، ولكن ذلك لم يرُقْ كثيرا من الأئمة ولا وقع منهم موقع القبول، فأنكروه منه، وخطؤوه فيه، ورأوا أنه كان ينبغى ألا يقتصر على من اقتصر عليه، أو أن يبين مراده به؛ ليكون الناس على بصيرة من الأمر[1]. قال أبو حيان: «... كان فى زمان هؤلاء السبعة

---

(١) النشر: ١: ٣٦.

من أئمة الإسلام الناقلين القراءات عالَم لا يحصون، وإنما جاء مقرئ اختار هؤلاء وسماهم، ولكسل بعض الناس وقصر الهمم وإرادة اللهً أن ينقص العلم اقتصروا على السبعة، ثم اقتصروا من السبعة على نَزْر يسير منها»[1].

وفى (النشر): «وكل ما صح سنده، واستقام وجهه فى العربية، ووافق لفظُه خط المصحف الإمام فهو من السبعة المنصوص عليها...

فعلى هذا الأصل بُنى قَبول القراءات على سبعة كانوا أو عن سبعة آلاف. ومتى فُقد واحد من هذه الثلاثة المذكورة فى القراءة فاحكم بأنها شاذة[2]. ولا يشترط فى الوجه الذى تتفق فيه القراءة مع العربية أن يكون جاريا على الأفصح أو المجمع عليه، بل يستوى فيه الأفصح والفصيح والمتفق عليه والمختلف فيه، فليس يعمل القراء على الأفشى والأقيس فى اللغة، بل على الأثبت والأقوى فى الأثر»[3].

ولم يشأ بعض العلماء أن يسكت عن صنيع ابن مجاهد، فألَّف مثله فى قراءات بعض الأئمة، ولكنه لم يتقيد بالعدد الذى تقيد به ابن مجاهد، زاد عليه أو نقص منه، فألف بعضهم فى القراءات الست[4]،

---

(١) النشر: ١/ ٤٢.
(٢) النشر: ١/ ٤٢، ٤٣.
(٣) النشر: ١/ ١٠.
(٤) النشر: ١/ ٨٤

وبعضهم فى القراءات الثمانى[1]، وبعضهم فى القراءات الإحدى عشرة[2]، وبعضهم فى القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها[3].

والرأى فى تواتر القراءات السبع مختلف، فينقل جماعة من القراء أن الإجماع منعقد على أن منها المتواتر والآحاد، وأنَّ أحدا لم يقل بتواتر كل واحدة من السبع بله العشر، وإنما هو قول بعض أهل الأصول، وأهل الفن أدرى بفنهم[4].

ويقول الرضي: فقراءة ابن عامر ليست بذاك، ولا نسلم تواتر القراءات السبع وإن ذهب إليه بعض الأصوليين[5]. ويقول سيبويه فيما سبق عن تحقيق همزتى نبى وبرية: وذلك قليل ردىء، فيعلق الرضى على هذا فيقول: «ومذهب سيبويه كما ذكرنا أن ذلك ردىء، مع أنه قرئ به، ولعل القراءات السبع عنده ليست متواترة، وإلا لم يحكم برداءة ما ثبت أنه من القرآن الكريم، تعالى عنها»[6].

---

(١) النشر: ١/ ٧٢، ٩٢.

(٢) النشر: ١/ ٧٣.

(٣) النشر: ١/ ٩٠.

(٤) التبيان: ١٠٦، والقراءات واللهجات: ٧٦.

(٥) شرح الكافية: ١/ ٢٩٣، والقراءة المقصودة هنا هى قراءة: «قتل اولادهم شركائهم» التى سبق الحديث عنها.

(٦) شرح الشافية: ٣/ ٣٥.

ومـا أرى فى ضوء هذه الحقائق أن على النحويين بأسـا إذا هم نقدوا القراءات سـبعية أو غير سـبعية، ولا أنهم بذلك يتكلفون القـول فيمـا لا يعلمون، أو ما ليـس من شـأنهم أن يقولوا فيه، فإنهـم فى نقدها إنمـا يبينون مكانها فـى العربية، ومبلغها من شـيوع الاستعمال، وليست القراءات فى هذا سواء، فمنها المتواتر والمشـهور والآحاد والشـاذ والموضوع[1]، والـرواة يتفاوتون كذلك ضبطا وإتقانا.

علـى أن النحاة لم ينفردوا بنقد القراءات، ولكن نقدها غيرهم كذلك من المتخصصين وغـير المتخصصين. فأبو عمرو بن العلاء صاحب الكلمة المشـهورة فى قراءة بن مروان السـابقة كان من أئمة القراء كما كان من أئمـة النحاة، حتى كان فيما يُقـال أعلمَ الناس بالقـرآن والعربية مع الصدق[2] والزهد. وفى (النشر): قرأ إبراهيم بن أبى عبلة: «الحمدُ للهً» بضم اللام الأولى، وقرأ الحسـن البصرى بكسـر الدال، وفيهما بعد فى العربية... وقرأ أبو أيوب السـختيانى: (ولا الضألين) بهمزة مفتوحة فـى موضع الألف، وهو قليل فى كلام العرب[3]... وقال الجاحظ: وغلط

(١) الإتقان: ١/ ١٣٣.

(٢) طبقات القراء لابن الجزرى: ١/ ٢٩٠.

(٣) النشر: ١/ ٤٦ وما بعدها.

الحسن في حرفين من القرآن، «ص[1] والقرآن»، والحرف الآخر: «وما تنزلت به الشياطون»[2].

وإذا لم يكن بُدٌّ من أن يؤخذ النحاة بشيء في هذا المجال، فليس هو نقد القراءات، ولكنه الأحكام القاطعة التي يحكم بها بعضهم أحيانا في مسائل لا تقبل بطبيعتها الأحكام القاطعة؛ لأنها تقوم على الرواية والسماع. وروايات اللغة كثيرة، وطرقها متعددة، لا يستطيع أن يحيط بها محيط، مهما أوتي من قوة الحفظ وكثرة التلقي والأخذ.

ومن ذلك قول سيبويه: «إن «يدع ويذر» على «وَدَعت، ووَذَرت»، وإن لم يُستعمل[3]، وقول آخرين: إن «ودَع» قد أميت، وأميت كذلك مصدره، واسم فاعله، واسم مفعوله، استُغني عنها «بتَرَكَ» فعلا ماضيا، «وتَرْك» مصدرا، و«تارك» اسم فاعل، و«متروك» اسم مفعول[4].

والحق أن هذه الكلمات لم تمت، ولكن قلّ استعمالها، آثرت العرب عليها «ترك» وما يتصرف منه، فقد ورد «ودَع» في قراءة «ما وَدَعك ربك»، بتخفيف الدال، وهي قراءة النبي ﷺ، وبها قرأ «مجاهد،

(١) أي بكسر الدال لالتقاء الساكنين (إتحاف فضلاء البشر: ٢٢٨).

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٢١٩.

(٣) الكتاب: ٢/ ٢٥٦.

(٤) التصريح. ٢: ٩٢، والمصباح، وشرح الشافية للرضي: ٣: ٩١، على أن الشارح ذكر في (١: ١٣٠) أن زدع لا يستعمل إلا ضرورة.

وعـــروة ابن الزبير، وابن أبى عبلـــة»[1] وغيرهم، وورد كذلك فى قوله ﷺ: «دعوا الحبشـــة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم»[2]، وفى قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى:

ورِث البغضـــةَ عـــن آبائـــه   حافظُ العقلِ لما كـان استمـــع
فسعى مسعاتهم فـى قومـــه   ثم لم يظفـرْ ولا عجزًا ودَع[3]

وقول أبى الأسود الدؤلى:

ليت شعرى عن خليلى ما الذى   غاله فى الحب حتـى وَدَعَـــه[4]

وقول آخر:

وكان مـــا قدَّمـــوا لأنفسهـــم   أكثرَ نفعًا من الذى وَدَعُوا[5]

وورد مصـــدره فى قوله ﷺ: «لينتهين أقوام عن وَدْعِهم الجُمُعات أو ليختمنَّ الله على قلوبهم.»[6].

وورد (وادع) فى قول الشاعر:

---

(١) المحتســـب، الورقة: ٨٤٣، مخطوط بدار الكتب ورقمه ٢٥٢ قراءات، وشرح شواهد الشافية: ٥٠: ٥١.

(٢) الجامع الصغير، رقم ٤٢١٨.

(٣) المفضليات: ١٩٩.

(٤) المحتسب: ٨٤٣.

(٥) شرح شواهد الشافية. ٥٢.

(٦) شرح شواهد الشافية. ٥٢، والبحر المحيط: ٨: ٨٤٥، واللسان والصحاح (ودع).

فَأَيّهما ما أتبعن فإنَّني حزينٌ على ترك الذى أنا وادعُ[١]

وورد (مودوع) فى قول خفاف بن ندبة:

إذا ما استحمَت أرضُه من سمائه جرى وهو مودوع وواعد مَصدّق

فـ (مودوع) هنا بمعنى متروك لا يضرب[٢].

□□□

(١) شرح شواهد الشافية: ٥٣.

(٢) الضمير فى البيت للفرس، وسماؤه: أعلاه، وأرضه أسفله، ومصدق: بفتح الميم والدال. الصدق فى كل شىء يريد أنه إذا جرى حتى أبتلت حوافره من عرق ظهره واصل الجرى، لا يضرب ولا يزجر، صادقا فى وعده أن يبلغ الغاية براكبه. (الأصمعيات: ١٢، والخصائص: ٢: ٢١٦، وشرح شواهد الشافية: ٥٣).

٢ - نحو القرآن: تعريف ونقد[1]

(نحـــو القرآن) كتــاب ألفه الأســتاذ الدكتــور أحمد عبد الســتار الجواري، ونشــره المجمع العلمى العراقى فيما ينشر من مطبوعات، وأكبر الظن أن كلمة (نحو) في عنوان الكتاب معناها جهـة، وأن السيد المؤلف أراد بالاســم المختار أن يدعو إلى الاتجاه نحو القرآن في دراسة علم النحو.

وبعيد أن يكــون مراده أن الكتاب يتعاطى بالدراســة والبحث نحو القرآن؛ لأن هذا يعنى أنه قد اتخذ القرآن مصدرا لدراســة جديدة تتبع فيها مسائل النحو كما تتمثل فى القرآن، وإلا كان اسم الكتاب على شيء من الخلاف مع شكله ومضمونه، فشكله أصغر حجما وأقل صفحات من أن يحيــط بالنحو كلِّه، ومضمونه مجرد نمــاذج متفرقة من ملاحظات علــى بعض قضايا النحو، يعرضها الأســتاذ المؤلف على نور من البيان القرآنى الرفيع. وأيًّا ما يكن معنى المؤلف من عنوان كتابه، ومهما يكن بــين العنوان والكتاب مــن وفاق أو خلاف، فالــذى لا خلاف عليه أن الكتاب يشــهد لصاحبه باجتهاد الرأى، وحرية الفكر، وحب العربية

(١) نشر هذا البحث في: مجلة مجمع اللغة العربية القاهرى: ج٣٤/ ١٢٨ شوال ١٣٩٤هـ/ نوفمبر ١٩٧٤م.

والغـيرة عليها، والرغبة في تقويم نحوها، واسـتنقاذه مما بدا له أنه صناعة بغيضة، وتكلف مرذول.

والكتـاب يمقت التأويل والتقدير، ويضيق بهما، ويوشـك أن يدير القـول كله عليهمـا. ولا أدرى فيمَ مقتهما والضيـق بهما، وهما أمران لا غنـى عنهما في كثير من أسـاليب العربية؟ فالكلام منه محكم قاطع الدلالـة على معناه، وآخر متشـابه يمكن أن يفهـم عنه غير وجه من المعاني، فيحتاج القارئ أو السامع إلى تبين المعنى المراد به على التعيين سؤالا عنه، أو نظرا فيه، أو استخراجا لمستكنه، أو ترجيحا لوجه على وجه، استئناسا بالمقام وقرائن الأحوال.

وقد أنـزل الله القرآن على هذه السـنن، وذكر التأويل فيه وأسـنده إليـه- جل وعلا- وجعل الراسـخين في العلم أهلا له، وشـركاء فيه، على أحد وجهي تفسير قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[1]،

وكان التمـرس بالتأويل والاقتدار عليه من المطالب العزيزة، والسـمات

(١) سورة آل عمران الآية ٧.

الشـريفة، سألها رسـول اللهّ- ﷺ- لابن عباس، فقال: «اللّهم فقه فى الدين، وعلمه التأويل»[1] واقتران الفقـه فى الدين بعلم التأويل يوحى بأنهما أمران لا يفترقان.

وقد أخذ الرسول- صلوات اللهّ عليه- بالتأويل حين قال: «من حوسب عذب»، فقد سـألتْ عائشـةُ حين سمعت الحديث، فقالت: أو ليس اللهّ يقول: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾، فقال عليه السـلام: «ذاك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك»[2]، فأوّل الرسـول الحسـاب فى الآية بالعـرض، وفى الحديث بمناقشة الحساب. وإذا أمكن أن يستغنى عن التأويل فى لغة ما فلا غنى عنـه فى العربية، لأنها لغة قوم عرفوا بصفاء القريحة وثقوب الذهن، تكفيهم الإشـارة الدالة، والإيماءة الموحية فى كثـير من المواطن؛ وإذاً أكثروا الحذف ونوعوه، وامتدحوا الأخذ به والفهم عنه[3].

والتأويـل فى أصل معناه الإرجـاع، ومنه قولهم فـى الدعاء لمن فقد شـيئا: «أوَّل اللهّ عليك ضالتك»، أى: أرجعهـا، ومنه كان تأويل الكلام وتأويل الرؤيا، أى: تفسـيرهما، وبيان ما ينطويـان عليه من غموض،

---

(١) البداية والنهاية ٨: ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) فتح البارى: ١/ ١٥٩، والآية فى سورة الانشقاق: ٧، ٨

(٣) من قضايا اللغة والنحو: ٨٥.

ليرجع كلاهما إلى أصل المعنى المراد، فالتأويل والتقدير إذًا ليسا تقولا ولا افتعالا، ولكنهما نظر وتوضيح وهدى فيما يحتمل أن يَضِلَّ الفهمُ فيه.

والنحويـون إذ يذكرون المحذوف، أو يظهرون المضمر إنما يرجعون فيه إلى اللغة، يسـتلهمونها، ويأخذون منها للنظائر والأشباه، ثم هم حين يقدرونه لا يقولون بذكره في الأسلوب وإدخاله في تأليفه.

علـى أن العرب كانت تعرف التقدير وتلحـظ معنى المحذوف في فهـم المراد، وهذا سـيبويه يقول بعـد أن أورد ضروبا من الحذف في الـكلام: « وهذه حجـج سمعت من العرب وممن يوثـق به، يزعم أنه سمعهـا من العرب. من ذلك قول العـرب في مثل من أمثالهم: اللّهم: «ضبعـا وذئبـا» إذا كان يدعون بذلك على غنم رجل، وإذا سـألتهم ما يعنـون؟ قالوا: اللّهم اجمع أو اجعل فيها ضبعا وذئبا، وكلهم يفسـر ما ينوى، وإنما سـهل تفسيره عندهم، لأن المضمر قد استعمل في هذا الموضوع عندهم بإظهار»[1].

ولا أدرى لمـاذا يحرم على النحـاة أن يتناولوا أسـاليب الكلام عند الحاجة بالبحث والتحليل والاستعانة بالمذكور على فهم المحذوف، ثم يباح للناقد الأدبي أن يقول عن النص ما لم يَقلْ، ويعزو إليه ضروبا من الدلالات، يسميها حينا لطائف وإشارات، وحينا رموزا وإيحاءات، لا تعدو أن تكون رؤى له، وخواطر من عنده؟

---

(١) الكتاب: ١: ١٢٩.

وفى القرآن الكريم آيات شتى لا يفهمها القارئ أو السامع على وجهها إذا هو قنع منها بالنظر فى ظاهرها، ولم يحاول النفاذ إلى غورها، ليطالع ما هناك من حذف فيأتى به، ويقدره فى التفسير والتأويل.

من ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾[1]، فظاهر الآية والمذكور من كلماتها يشيران إلى أن «مبصرة» وصف للناقة لفظا ومعنى، وإذًا يكون المراد أن الناقة التى آتاها الله ثمود لم تكن عمياء، وهى على هذه الصفة لا تعد آية من آيات الله للأنبياء، فما هى معها إلا ناقة من عموم النوق التى برئت من العمى.

وقد قال الله تعالى فى موطن آخر: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[2]، وقال فى موطن ثالث: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[3] إذًا لا تفهم الآية حق الفهم إلا بتقدير كلمة (آية) قبل (مبصرة)، ليكون تأويل الآية: وآتين ثمود الناقة آية مبصرة.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾[4]، وظاهر الآية يجعل السماء خلقا مذكرا، وهى فى سائر الآيات التى ذكرت فيها وفى

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٩.

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٣) سورة الإسراء الآية ١٢.

(٤) سورة المزمل الآية ١٨.

العربيـــة عامة خلق مؤنث. فهل نقف عند ظاهـــر الآية لا نعدوه بحثا وتنقيبا، ونحكم بأن الســـماء خلق يأتـــى مؤنثا كثيرا، وأتى مذكرا مرة فى القرآن، أو أن نرجع إلى الآيات الأخر التى ذكرت السماء فيها لعلنا واجدون هناك نورا يهدى إلى الحق، ويكشـــف عن سر من أسرار البيان القرآنى الرفيع؟

إن المقرر تجربة وأثرًا أن القرآن كلٌّ متماسـك: يفســـر بعضه بعضا، ويكمل بعضه بعضا، فالخير إذًا أن نجشـــم أنفســـنا طلب الآيات الأخر التى للســـماء فيها أوصـــاف مميزة، وصفها الله بها شـــاهدا على القدرة وإحكام التكوين.

قـــال تعـــالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ ﴾[2] وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾[3]، وقال: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾[4]، فالله- جلت قدرته يجعل الســـماء مفردة والسماوات جملة بناء محكما لا فطـــور فيه، متماســـكا ينجـــذب بعضه إلى بعض، تبارك الله أحســـن الخالقين.

---

(١) سورة النازعات الآية ٢٧.

(٢) سورة الشمس الآية ٥.

(٣) سورة ق الآية ٦.

(٤) سورة النبأ الآية ١٢

وآيـة ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾[1]، تصـف حدثا مـن أحداث يوم القيامة، فهو يوم تشـيب فيه الولدان، وينفطر بناء السـماء المحكم الوثيق. وكأن المعنى حينئذ- والله أعلم-: وبناء السماء منفطر فى هذا اليـوم، وإذًا لا تخالف بين الموصوف والصفـة أو الخبر والمبتدأ، كما لا يخفى.

وآيات أخرى علي شـبه هاتين الآيتين، أذكرها ولا أعلق عليها آية فآيـة، فمفتاحها كلها واحـدٌ، وهو ملاحظة فعل مقـدر يلائم معناها ويجليه. قـال تعـالى: ﴿ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾[2]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا ﴾[3]، وقـال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[4].

(فملـة) فى الآيـة الأولى ينصبها فعل محذوف، وهـو الذى يوجه إعرابهـا، ويدل علـى معنى الآيـة، وتقديره: (نتبـع)، وكأن معنى (كونوا هودا أو نصارى): اتبعوا ملة موسـى أو عيسى، والجواب الذى تجاب به هذه الدعوة يجب أن يكون: بل نتبع...

---

(١) سورة المزمل الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٥.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦١.

(٤) سورة طه الآية ١٣١.

ونخلصُ من هنا للنظر فى القضايا التى أثارها (نحو القرآن) والأمثلة التى أقامها شواهد لتلك القضايا:

يرى الكتاب أن من العبث التأويل الذى أول به قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾[1] ، وقوله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾[2]، ولكنه لم يبين لنا هذا العبث: ما هو؟، ولا لماذا عده عبثا لا حكمة له؟

والمعروف من صنيع النحاة للآية الأولى أنهم نظروا فيها كما نظروا فى غيرها من الآيات التى عرضوا لها بالبحث، لكن سبيل الفهم تفرقت بهم، فمنهم من فهمها على معنى: ما لنا لا نتوكل على اللَّه؟، إنكارًا لعدولهم عن الأخذ بالتوكل، ووجد أن العبارة مفهومة المعنى بغير (أن)، فقضى بأنها زائدة، وأنها مع ذلك عاملة للنصب فى الفعل بعدها.

وفهمها آخرون على معنى: أى نفع، أو داع لنا إلى أن نترك التوكل على اللَّه، نفيا لعدم التوكل أن يكون فيه نفع أو له داع، فقضوا بأن (أن) ليست زائدة، وأنها لذلك ناصبة للفعل. فهل هذا البحث واختلاف الفهم فى معنى الآية هما هذا العبث؟

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٢.

(٢) سورة النساء الآية ٨٨.

وإذًا فمــاذا كان عليهم أن يعملوا غير ما عملوا؟ وما حيلتهم فى اتقاء الخلاف فــى الرأى إذا كان أمــارةً من أمارات الــرأى الحر، والتفكير المستقل؟

أمــا الآية الثانيــة فقد عاد الكتــاب إليها فــى (ص: ٩٤)، وهناك نعى على النحــاة تأويلها، ونقل قول الفراء فيها، وقول محققى كتابه «معانى القرآن» لتوضيح المراد. وتأويل الآية على ما يقوله الفراء ومحققا كتابه هو: ماذا حدث لكم فى الحكم على المنافقين الذين تعنيهم الآية، فاختلفتم فيهم فئتين؟

وهو كلام قويم لا عوج فيه، يؤدى المعنى أداء بينا، وإن كان لا يدانى الآية فى براعة النظم، ومثله كمثل نثر الشعر إذ يلتزم صاحبه الأصل، ويتحرى الدقة فى التعبير عنه، فهو حينئذ باسترســاله، وتجرده من إيقاع النغم لا يبلغ مبلغ الشعر من البلاغة والتأثير، ولا سيما أن القارئ يقرؤه، وهو مازال مأخوذا بحلاوة الموسيقا، وتساوق الأنغام.

وينكر الكتاب فى فصل المبتدأ والخبر تقدير مبتدأ فى آيات، منها: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾[1]. وهــذه الآية تدعو مع آيات قبلها إلى كتابة الدين عند المداينة؛ لضمان أدائه فى موعده، فإن لم يوجد ثمة كاتب فالضامن رهن يقدمه المدين. والقارئ أو

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٣.

السامع إذ يصل إلى (فرهان) لا يملك أن يرد ذهنه عن إدراك المحذوف، وأنــه الضمان الذى يحل محل الكتــاب ويغنى عنه، لأنه المحور الذى يدور عليه معنى الآيات.

ثـم هـو قد عهد ذكـر المبتدأ فـى آيات أخر تشـبه هـذه الآية فى نظـم الأسـلوب، مثــل: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[1]، ومثــل: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾[2]. ومن شـأن الشبيه أن يُذكَر بشبيهه، فذكرُ المحذوفِ لا يعدو أن يكون إظهارًا لما فى ذهن القارئ أو السامع.

ومنها آيــة: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾[3]، وهى آية تصف حال قوم كانوا إذا أمرهم الرسول يقولون: (طاعة)، فإذا انصرفوا بيَّت طائفةٌ منهم غير الذى تقول. فالمبتدأ مفهوم من المقام، وحذفه لا يذهب به من الذهن أو يلبسه عليه. والنحويون إذ يقولون: إن التقدير: (أمرك طاعة) لا يقولونه مـن هواء، وهم لا يسـتوحون فيه المقام وكفى، ولكنهـم أيضا يرددون ما تقوله العرب حين تصرح به، كما فى قول عمر بن أبى ربيعة:

فقالت: على اسمِ اللهِ أمرُك طاعةٌ وإنْ كنتُ قد كُلِّفت ما لم أُعـود[4]

(١) سورة البقرة الآية ٢٧١.

(٢) سورة النساء الآية ٩٣.

(٣) سورة النساء الآية ٨١.

(٤) ديوان الشاعر: ١٥٤.

ومنها آية: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ﴾ (١)، والآية تنهى أهل الكتاب أن يَغْلُوا في دينهم، ويقولوا على الله غير الحق، فيشركوا به غيره، ويجعلوا الآلهة ثلاثة. فالمبتدأ- وهو الآلهة- مفهوم من المقام، أيضا لا يعزُب علمه عن السامع أو القارئ.

ثم إن العرب تعمل القول في الجمل وما في معناها، ولا تعمله في غير ذلك. فإذا لم يُقدَّر مبتدأ في الآية فهل يكون لفظ (ثلاثة) هو وحده مقول القول؟ ولماذا لم ينصب حينئذ؟ ويمضي الكتاب فيذكر ما شاء من الآيات التي تشبه تلك التي تحدثنا عنها.

ثم يقول الكتاب عن الأخذ في التقدير بقاعدة أن الكلام لابد أن يتألف من ركنين: «قاعدة تقوم على المنطق، ولا تعبأ بالأصل العلمي الذي لا يجوز له أن يفترض في مادة البحث مهما كانت ما ليس موجودا» .

ويعنينا مما تنطوي عليه هذه العبارة أن نقرر أن النحويين- كما يعلم الناس- لا يفترضون التقديرات افتراضا، ولكنهم يأتون بها نقلا عن أساليب متشابهة لا تقدير فيها، أو يستنبطونها استنباطا من فحوى الكلام، معاونة على الفهم، وإرشادا إلى الصواب كما سبق.

---

(١) سورة النساء الآية ١٧١.

ويذكـر فـي فصـل الفعـل آيـة: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[1]، ثـم ينقل قول الزمخشـرى فى إعرابها: «(بربـك) فى موضع الرفع على أنه فاعل (كفى)، و(أنه على كل شـىء شـهيد) بدل منه، تقديره: أو لم يكفهم أن ربك على كل شىء شهيد». ثم يعقب على ذلك، فيقول: « وأنت ترى البون البعيد بين هذه العبارة والنص القرآنى، حيث يتجه الإسناد إلى (ربك) فيه، ويتجه فى عبارة الزمخشرى إلى ما يتعلق به»

وظاهر أن إعراب الزمخشرى مطابق لقول نحو القرآن: « إن الإسناد فـى الآية يتجـه إلى (ربك)»، وأما قوله تقديـره «أو لم يكفهم... إلخ» فليـس عدولا عن توجيه الإسـناد وجهته، ولكنه بيـان لما يدل البدل عليه فى الأسـاليب العربية، وتوضيح لموقع (أنه على كل شىء شهيد) مـن الآية، ولصلتها بما قبلها، فالمقـرر أن البدل يذكر على نية تكرار العامـل، بدليل قوله تعالى: ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾[2]، ويذكـر أن الفعل قد وقع موقع الفاعل فى آية: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[3]، وهـو بموقـع الفاعل حقا، ولكنه ليس به كما يفهم من كلام الكتاب، ولو قلنا: إنه يمكن أن

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٤.

(٣) سورة يوسف الآية ٣٥.

يستعمل الفعل كما يستعمل الاسم، لا يمنعه من ذلك دلالته على الزمن لكان لفظ (ليسجننه) فاعلَ (بدا)، وهذا غير الواقع. ولو أن الذين بدا لهم أن يسجنوا يوسف سُئلوا عن هذا الذى بدا لهم فيه لقالوا: السجن، ولم يقولوا: ليُسجننّ.

والسجن هو الذى جعله الزمخشرى فى إعراب الآية مفسرا للفاعل الذى قدره: ببَداء، وليس ثمةَ خلاف بين المفسِّر والمفسَّر، كما يقول الكتاب، فالعرب تقول: بدا لى فى هذا الأمر بَداء: أى ظهر لى فيه رأى، فالبداء الملحوظ فى الآية معناه الرأى، وهو كلمة ذاتُ عموم، لكن يخصصها السجنُ المفهوم من (ليسجننّه).

فوضح أنه لا خلافَ بين المفسِّر والمفسَّر كما يقول الكتاب، ولكن الذى بينهما أن فى الأول عمومًا وفى الآخِر خصوصًا يحد من هذا العموم.

ويرى الكتاب أن الفعل يُذكر فاعلا للأفعال الناسخة حين لا يُذكر فى الكلام خبر لها، فالفعل (يزيغ) فى قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ﴾[1] ، فاعل (كاد)، ومثله بقية الأفعال التى ذكرها الكتاب فى آيات أخرى.

ومعلوم أن كاد معناها قرُب، وإذا يكون معنى الآية: قرب يزيغ قلوب فريق منهم. فالفعل (يزيغ) هو الذى فعل القرب، ولا أدرى كيف

---

(١) سورة التوبة ١١٧.

يفعلُ الفعل، وأين هذا من جعل اسم كاد ضمير الشأن. وجملة (يزيغ قلوب فريقٍ منهم) خبرا لها؟

أليسَ ضمير الشأن حقيقة لغوية، وليس له مرجع في الكلام، ولكن يفسره ما بعده كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[1]؟

ويَعُدُّ الكتاب من قبيل حكاية القول دون ذكره عبارة: (أن يا موسى) في آية: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[2].

والواقع أن الفعل (نُودى) من قبيل القول، فالنداء ضرب منه ولا يكون إلا به. وإذًا لا يكون القول في الآية إلا محذوفًا.

وشيوع حذف القول في القرآن لا ينقض الحكاية ومقول القول كما يقرر الكتاب، وهو يذكر هنا فيما يذكر من الآيات: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾[3].

ويقول النحويون: إن التقدير فيها: يقولان: ربنا. وقد أظهره عبد الله بن مسعود في قراءته[4]، وأخذ النحويون في تقريرهم له بهذه القراءة.

---

(١) سورة الإخلاص الآية ١.

(٢) سورة القصص الآية ٣٠.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٧.

(٤) الكشاف: ١: ٧٤.

ويقــول الكتاب: «إن فيما يســبق القول المحكى من الكلام ما يوحى به»، وهو قول لا خــلاف فيه، ولهذا جاز حذفه حينئذ. وهو إذ يُقدر لا يكون تقديــره من فراغ، وليس يعدو تقديره أن يكون تعبيرا عما فى الذهن تلقيا من فحوى الكلام.

ويَذكــر أن فــى القرآن إيجــازا لا تحيط به قواعــد النحو، ويضرب مثالين لذلك.

الأول: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1]، والآخــر: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾[2]. والــذى تقوله قواعد النحو أن ما قبل المحذوف يدل عليه حين يكون الحذف جائزا كما فى المثالين.

والكلام فى المثال الأول عن الإحسان وعاقبته، والإساءة وعاقبتها، غير أن الأســلوب إذ يذكر الإحسان يجعل فعلى الشرط والجواب من لفظه، وإذ يذكر الإســاءة يجعل الشــرط وحده مــن مادتها، ويحل محلها في الجــواب بيان مَنْ تقع عليه عاقبتها. وإذًا يكون التأويل: وإنْ أســأتم فإســاءتكم، بدلا من أسأتم لأنفســكم. ويكون التأويل فى الآيــة الأخرى: فإنْ خفتم فصلــوا رجالا أو ركبانا، لأن الحديث عن

(١) سورة الإسراء الآية ٧

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٨، ٢٣٩

الصلاة. وإذًا لم يمتنع على قواعد النحو أن تحيط بإيجاز الآيتين كما يقول الكتاب.

وينكـر الكتاب فـي فصل الاسـتثناء أن يكون سـوى بمعنى غير، ويقول: «فمادتها اللغوية تدل على أن معناها نقيض معنى غير»، لكنه لم يبين كيف؟

والذى في اللسـان: «سـوى بالقصر يكون بمعنيـين، يكون بمعنى نفْس الشيء، ويكون بمعنى غير... وفي الحديث: سألت ربى ألا يسلط على أمتى عدوا من سـواء أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، أى من غير أهل دينهم. وقال الفنْد الزِّمّانى:

ولم يبقَ سوى العدوا نِ دنّاهم كما دَانـوا»

وروى الكتاب هذا البيت، ثم تركه لا يعقب عليه بشـيء، وإن كان لصريحا في دلالة سـوى على معنى غير. ثم نقـل كلام الفرَّاء عن قوله تعـالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[1] حيـث يقول: وأمـا قوله تعـالى: «ولا الضالين» فإن معنى (غـير) معنى (لا)، فلذلك ردت عليهـا. هذا كما تقول: فلان غير محسـن ولا مجمل، فإذا كانت (غير) بمعنى (سوى) لم يجز أن تكر عليها (لا)...، ثم يقول الكتاب: «وواضح أن الفراء يلحظ الفرق بين (غير وسوى)، وينكر ما يذهبون إليه من استعمالهما بمعنى واحد».

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٧.

والواضح حقا أنهم إذ يذكرون (سوى) مع (غير) في باب الاستثناء، ويتحدثون عنهما بما يدل على اتفاقهما معنىً- إنما يريدون أن (سوى) تجيء بمعنى (غير) حين تكون للاستثناء. وليس يمنع من ذلك أن يكون في (غير) من معنى النفي في بعض الأساليب، لاشتقاقها من المغايرة. وقول الفراء نفسه: «فإذا كانت (غير) بمعنى (سوى) لم يجز أن تكر عليها (لا)».

-يدل على أن (سوى) عنده تكون بمعنى (غير)، كما أن (غير) تكون بمعنى (سوى). ثم ما الرأى في الحديث الشريف وبيت الفند الزماني اللذين ذكرناهما آنفًا، وكلاهما شاهد على أن (سوى) معناها معنى (غير)؟

ويصنع الكتاب بقولتين للزمخشرى مثل ما صنع بقولة الفراء الآنفة، قال الزمخشرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾[1]: وقرئ (منذرٌ) بالتنوين، وهو الأصل، والإضافة تخفيف وكلاهما يصلح للحال والاستقبال، فإذا أريد المضى فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس.

وهو كلام صريح الدلالة يمنع تنوين اسم الفاعل الماضى إذا خلص لزمنه. وقال الزمخشرى في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ

(١) سورة النازعات الآية ٤٥.

﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ ﴾[1]: «أى وما كنت قطُّ عابدًا فيما سلف ما عبدتم فيه، يعني: لم تُعهد مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف ترجى مني في الإسلام»؟

وهذا أيضا كلام صريح الدلالة كالذى قبله، ينفي عن الرسول عبادة الأصنام في الماضي، وينفيها عنه نفيا أشد في الحاضر. فاسم الفاعل (عابد) منفي المعنى مضيا وحضورا، أى أنه ليس خالص الدلالة على الزمن الماضي كالمثال الذى ذكره الزمخشري: هو منذر زيد أمس. ولكن الكتاب برغم ذلك يقول: «وهذا يدل على أن اسم الفاعل المنون يَرِدُ لمعنى المضي خلافا لما يدعون». على أن هذا القول ليس بالجديد. فالكسائي وجماعة معه يجيزون إعمال اسم الفاعل الماضي الزمن؛ أخذًا بظاهر قوله تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾[2].

ولا يرى الكتاب أن إضافة اسم الفاعل من قبيل الإضافة اللفظية، فيقول: «ولا عبرة بدعواهم أنها إضافة لفظية، لا يكتسب بها الاسم المضاف تعريفًا ولا تخصيصًا».

ولا ندرى ماذا يرى الكتاب إذًا في وصف النكرة وهو مضاف إلى معرفة في قوله تعالى: ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ

---

(١) سورة الكافرون الآية ٣، ٤.

(٢) سورة الكهف الآية ١٨.

﴿ ٱلْكَعْبَةِ ﴾[1] ، ووقوعه حالا فى قوله أيضا : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾[2]. وهو بعد يعزو إلى النحويين أن إضافة الصفة المشبهة عندهم من الإضافة المحضة ، والحق أنَّها عندهم لفظية ، وهم يحتجون لذلك بقول أبى ذؤيب يصف تأبط شرًا :

فأتتْ به حُوشَ الفؤادِ مبطَّنًا سُهُدًا إذا ما نام ليلُ الهوجلِ

فقد وقعت فيه «حوش» حالا ، مع إضافتها إلى «الفؤاد».

ويورد الكتاب فى فصل جملة النفى طائفة من الآيات الكريمة ، زيدت «مِنْ» فى بعضها ، و«الباء» فى بعضها الآخر ، ثم هو لا يرى أنهما زائدتان. ولا ندرى ماذا يرى فى قوله تعالى. ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴾[3]، فقد ذكرت فيه (خالق) مجرورة بمن الزائدة، وذكرت (غير) مرفوعة وفاقًا لمحله، لا مجرورة وفاقًا للفظه. وهل يعنى هذا إلا أن (مِنْ) زائدة، وأن (خالق) بعدها معرب فى واقع الأمر بما كان يعرب به حين لا تذكر (مِنْ) قبله؟

وينكر الكتاب أن يكون للزمن مدخل فى جملة الحال حين تكون فعلية فعلها ماض مثبت، ويرتِّب على ذلك ألا تقدر قبلها (قد)، إذا

(١) سورة المائدة الآية ٩٥.

(٢) سورة الحج الآية ٨، ٩.

(٣) سورة فاطر الآية ٣.

لم تكن مذكورة. فأما ألا تقدر (قد) قبلها حينئذ فرأى يراه الأخفش، وهو إذًا ليس بالجديد. وأما ألاّ يكون للزمن فيها مدخل فلا؛ لأن الحال أيا ما كانت وصف لصاحبها مقارن لزمن العامل فيها. ولنأخذ مثلا لبيان ذلك الآية التى استشهد بها، وهى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[1] فضيق الصدور كان صفة قائمة بالقوم حين جاءوا الرسول عليه السلام، لا له ولا عليه.

وإذ يدنو الكتاب من نهايته يذكر أن فى القرآن صورا للتعجب لا تعرفها كتب النحو، ولا قواعد النحاة، ويورد مثالين متشابهين: أولهما قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾[2].

والحق أن النحاة لم يَعرِضوا لأساليب التعجب بالاستقراء والحصر. ومن قولهم فى ذلك: «التعجب له عبارات كثيرة واردة فى الكتاب والسنة وكلام العرب...» والمبوب له فى النحو صيغتان: إحداهما ما أفعله، والأخرى أفعل به، لأنهما الصيغتان اللتان وضعتا له، واللتان يمكن أن ترسم لهما حدود، وتوضع قواعد. أما غيرهما فضروب من الأساليب لها معانٍ أصلية تؤديها، وإنما التعجب طارئ عليها، ومفهوم منها عرَضًا.

ويرى الكتاب أن التعجب فى الآية التى نقلناها عنه؛ وفى الآية الأخرى التى تركناها إنما هو فى كلمة (قتل)، وينقل لتعزيز رأيه قول

(١) سورة النساء الآية ٩٠.

(٢) سورة المدثر ١٨، ١٩.

الزمخشرى: «تعجب من تقديره، وإصابته فيه المحز...، ومعنى قول القائل: قتله اللهً ما أشجعه!، وأخزاه اللهً ما أشعره!- الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيقٌ بأن يُحسد عليه، ويدعو عليه حاسده بذلك».

وكلام الزمخشرى غنى عن التفسير، فقوله فيه أولا: «تعجب من تقديره»، وقوله بعدُ: «حقيق بأن يدعو عليه حاسده»- يدلان فى غير لبس على أن التعجب إنما يكمن فى الاستفهام بكيف؛ لأنها التى ذُكِر بعدها التقدير الذى يستحق التعجب، ولأن دعاء الحاسد على صاحب هذا التقدير العجيب إنما هو بكل من: «قتله اللهً، وأخزاه»، فكلاهما فعل يراد به الدعاء لا الإخبار.

والكتاب بعد هذا يتناول النحاة حين ينقدهم بما يمكن أن يُعد انتقاصًا لهم وزراية عليهم، لا يفرق بينهم، ولا يستثنى منهم. وإلا فماذا نقول عن وصفهم جميعا بالشطط، والتخليط وهزال الرواية، وخيانة الحس والذوق اللغوى، ثم وصف كثيرا ممن أسسوا قواعد النحو، وأحكموا مغاليقها بقصور الفهم وضيق الأفق.

والسابقون الأولون من النحاة، خاصة هم أئمة العربية، وحفظة تراثها، أخذوها سماعا من أهلها، إما تلقيًا عن الوافدين منهم إلى الحاضرة، وإما نفورًا إلى البادية، يعيشون بينهم، ويشافهونهم، ويروون عنهم، ويدركون معناهم بما يقولون فى التصريح والتلميح، وحين الإفراد والتأليف، ومنهم بعد ذلك من ذُكر بين أئمة القراء.

فـإذا لم تأخذ العربية عنهم، ولم يكونوا هـم أصحاب الرأى فيها فمن يكون؟

وما أريد بذلك أن أسمو بهم عن النقد والملاحظة، ولكن الذى أريده أن يُعرف فضلهم، وأن يدور القول معهم على الحقائق، يوردها من يشاء، معزَّزةً بشواهدها وحججها، ويدع لها هى الفصل وإصدار الأحكام.

وينكـر الكتابُ- فيما ينكر من أمر النحاة- أنهم «اعتمدوا في وضع قواعـد النحو على ما بلغهم من كلام العرب: شـعره ورجزه ومثُله، أو آثروا جانب المنطق، فتصوروا القاعدة قبل استقراء المادة اللغوية».

والشـطر الأول من هذه الفقرة يمكن أن يعد من المدح بما يشبه الذم، فمـاذا كان يُراد منهم أن يعتمدوا عليه فى وضع النحو أكثر مما جاءهم من نصوص الكلام العربى على اختلافها؟

أكان يُـراد منهـم مثلا أن يحددوا إقامة القبائـل، كلٌّ فى ديارها لا تبرحها حتى يمروا بها قبيلةً قبيلةً، فيستوعبوا كل ما قال أهلها فردا فـردا، لا يفلت منهـم قائل، ولا يندّ عنهم لفـظ؟ أم المراد أنهم أكثروا الاعتماد على كلام العرب ما لم يُكثروا مثله على القرآن الكريم؟

إن يكـن ذلك هو المـرادَ فذلك مـا لم يكن لهم منه بُـدٌّ، لأنه الأمر الـذى يقضى به الواقـع، فالقرآن مـن العربية، وليسـت العربية من القرآن، هى أكثر مادة، وأسـاليبها أشـد تنوعا وتعقيـدا، لأنه القرآن وكفى، ولأن للنثر سـعته وسماحته، وللشـعر مآزقه وتشدده، والمهم

أنهم لم يقصروا فى الرجوع إلى القرآن والتعويل عليه ما دعت داعية، وقد فعلوا. فعدة شواهد سيبويه من القرآن الكريم (٣٧٣)، ومن الشعر والرجز(١٠٦١)[1]، ثم هم لم يقصروا فى تفسيره ودراسته على نور من النحو ومسائله، فتصدى كثير منهم لإعرابه والاحتجاج لقراءاته، حتى القراءات الشاذة. أما تصورهم «القاعدة قبل استقراء المادة» فقول مرسل، لا يصحبه مثال ولا بينة. وإن يكن من ذلك شىء فلا نكران له إلا إذا أسفر الاستقراء اللغوى عن قصور القاعدة بما يجعلها غير مستوعبة لجمهرة ما تنطبق عليه من النصوص. فالمعول عليه أن تكون القاعدة صحيحة وصالحة، وليكن مأتاها ما يكون.

هذا، ولم أتبين للكتاب رسالة يؤمن بها، ويدعو إليها. على أنى رأيته يكرر القول فى التأويل والتقدير، ويكثر التنديد بهما. فهل يمكن أن نفهم أنه يدعو إلى الوصفية فى النحو وينهى عن المعيارية فيه كما يفعل بعض الباحثين من المعاصرين؟

فإن تكن تلك رسالتَه فهل يريدها وصفية فى القرآن خاصة، أو فيه وفى غيره من نصوص العربية؟ فإن تكن الأولى فماله سكت عن بقية أبواب النحو لم يدرسها فى القرآن كما صنع بالأبواب التى ذكرها؟ وإن تكن الأخرى فما باله لزم القرآن فى دراسته لا يعدوه؟

---

(١) سيبويه إمام النحاة: ٢٣٥.

وبعدُ، فقد مررتُ بهنوات لغوية ونحوية فى عبارة الكتاب، لعلها تسللت إليها على حين غفلة لشيوع تداولها فى لغة العصر، وهى:

١ - ذكر متعلق الجار والمجرور مع أنَّه كون عام فى قوله (ص٢١): «وليس موجودا فيها»، ولا يخفى أن حذفه هنا واجب، وقد ذكر الكتاب وجوب حذفه في: (ص٣٤، ٤٨)

٢ - قلب ياء « افتيات» همزة في قوله (ص ٢٩): «وذلك لعمرى افتئات»، ولا وجه. لهذا القلب، فالافتيات مصدر افتات، والمادة اللغوية للكلمة هى «الفوت»، فأصلها: افتوات، قلبت الواو ياء لا همزة.

٣ - زيادة الباء في مفعول « قَبِلَ» في قوله (ص ٣٦): « وأنى لهم أن يقبلوا به؟»، والمراد أنه بعيد أن يقبلوه. والفعل بهذا المعنى ينصب مفعوله بنفسه. وإنما يصل إليه بالباء إذا كان بمعنى كفل وضمن، فيقال حينئذ: قبل به.

٤ - استعمال «بينما» فى أثناء الكلام فى قوله (ص٨٢): « يغلب فيها شبه الفعل، بينما الإضافة امتزاج»، فبينما فى العبارة تتعلق بـ (يغلب) قبلها.

وتذكر كتب اللغة أن «بينما» مما له الابتداء، فلها صدر الكلام، كأشباهها من أسماء الشرط والاستفهام.

□□□

٣ - من تصريف الضمير فى القرآن الكريم[(١)]

لم تعرف الدنيا فيما طوت من دهرها الأطول، ولا تعرف فيما تشهد من حاضرها الماثل، ولن تعرف فيما تستشرف من أبدها القابل- كتابا نَزل من السماء، أو خرج من الأرض، فصنع للبشرية مثل ما صنع القرآن الكريم.

لقد جاءها بدستور إلهى، ينظم حياتها، ويقيم الأمر فيها على قواعد راسيات من التراحم والتواد، ومن العدل والحرية، ومن الإخاء والمساواة، وهو بعد معجزة البيان الخالدة، براعة نظم، وإشراق بيان، وشرف رسالة، وبلاغة حكمة، واستقامة هدى ورشاد.

فلم يكن غريبا ولا مستغربا أن يؤخذ الناس به، وينشطوا إقبالا عليه عصرا بعد عصر، يدرسونه، ويتدبرون آياته، فكان من ذلك، وبتوفيق من الله وعون أن اشتقت منه علوم، ووضعت له علوم، ودارت حوله بحوث ودراسات، لا ينفرد بذلك أهل لغته والمؤمنون به، ولكن يشاركهم فيه جمهرة عظيمة من أولى العلم وأصحاب المزية هنا وهناك، وسيظل ينبوع معارف ومصدر وحى وإلهام على تعاقب العصور والأجيال، وبكل لغة ذات حياة.

---

(١) نشر هذا البحث في: مجلة مجمع اللغة العربية، ج٣/ ٦٩، جمادى الآخرة ١٣٩٩هـ/ مايو ١٩٧٩م.

ومــن عادة القرآن ألا يلتزم فى التعبــير نهجا واحدا، ولكنه يفتن فيــه ما شــاء، فهو حينا يأخذ على مقتضى الظاهــر، فإذا بيان أبلج، كأنه فلج الصبح وضوحا وإشــراقا، وحينــا يذهب مع المعنى، ويؤثره على النظم فى نمطه المعتاد، لناشئة من إشارة لطيفة، أو لمحة دقيقة، فيكــون من ذلك- فيما يكون- تخالف بــين الضمير ومرجعه، إفرادا وتثنيــة وجمعا، وتذكــيرا وتأنيثا، إلى ضروب أخــرى من التخالف تنطوى على أســرار مكنونــة، وحكم مصونة. ولعمــرى ما هذه وتلك إلا معــالم يقيمها التنزيل الحكيم مواقف تدبر وإمعان لا يملك القارئ المســتبصر إلا أن يقف عليها، وينظر فيها لعله ظافر منها بنفحة من غيبه أو ومضة من نوره، تطيب بها نفســه، ويخشع لها قلبه، ويزيد بها إيمانه قوة ورسوخا.

ولقد نالت هذه المتشابهات حقها المقسوم من عناية أسلافنا المكرمين. عكفوا عليها لا يألونها درســا وبحثا، غير أنهــم كانوا فى جملة الأمر يعولون فى أمرهم على علوم اللغة، يستفتونها، ويحتجون بشواهدها، ولا يكادون يعدلون بها بدلا، أو يلتمسون من سواها عونا.

ولعلــوم اللغة فى هذا المقام شــأن مذكور، لا مراء ولا خلاف، لأنها قوانين العربية والعيار عليها.

والعربية هى اللســان الذى اختــاره الله- تعالــت حكمته- لكتابه الكريم لكن علومها ليســت هى المرجع الوحيد فى كل مقام، فهناك أولا

القرآن نفسه، ليس كمثله شيء تأويلا لمتشابهه، وتفصيلا لمجمله، وكشفا لأسراره، في مواطن مختلفات.

وإذن يكون التعويل على علوم اللغة وحدها قصورا، لا يؤمن معه التكلف والاعتساف، فإذا التأويل بعيد، والمعنى معه هزيل، وإذا الذوق والإحساس بمضيعة من القضية، كأن ليس لهما فيها عمل أصيل، ولا رأى رشيد، وإنهما لمناط المتعة والاقتناع، وعدة التأثر والانفعال.

ثم هناك مع القرآن الكريم في هذا المقام واقع الحياة، وسنة الله فى الوجود. وإنى موردٌ هنا ثلاثة أمثلة من الآيات جرى فيها تصريف الضمير على خلاف مقتضى الظاهر، ثم أحاول أن أكشف سر هذا الخلاف على ما يبدو لى أنه الرأى، والله وحده هو العليم بما يريد.

أولُ هذه الأمثلة عن المنافقين، وثانيها عن وأد البنات، وثالثها عن الأنعام.

والمنافقون الذين نعنيهم هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٣، ١٤.

إنهم- كما تصفهم الآيتان- قوم آمنوا بألسنتهم، وكفروا بقلوبهم، ويشبههم الله تعالى بما يزيد حالهم وضوحا، فيقول: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

ونلاحظ أن مستوقد النار في الآية مفرد، وقد وصف بلفظ (الذى)، وهو الاسم الموصول الذى يوصف به المفرد، وأسند إليه الفعل (استوقد) كما يسند إلى المفرد، وعاد عليه الضمير المتصل بكلمة « حوله»، وهو ضمير المفرد أيضا، لكن الضمير (هم) فى كل من (نورهم، تركهم، ولا يبصرون) ضمير الجمع المذكر العاقل، فقد اختلفت هنا الضمائر وما تعود عليه، هو مفرد وهى لجمع.

ولقد نظر العلماء فى هذا الخلاف، ولكنهم لم ينتهوا فيه إلى رأى جميع، فقال الفراء: «ضرب المثل- والله أعلم- للفعل، لا لأعيان الرجال، وإنما هو مثل للنفاق. وعلى هذا يكون التأويل: مثل فعلهم كمثل فعل الذى استوقد نارا، فلما أضاءت ما حول الفعل ذهب الله بنورهم». وهو تأويل غير مقبول، لأن لفظ الفعل ليس مذكورا، وليس فى الآية ما يشير إليه، فكيف يعود الضمير عليه، ثم إن الأشبه بالمنطق أن تضىء النار ما حول المستوقد، لا ما حول فعله. ويمضى الفراء فيقول: « وإنما قال

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧.

اللهَ- عـز وجل-، (ذهب اللهُ بنورهم) لأن المعنى ذهب إلى المنافقين»[1]، يريد أن المعنى فى الآية هم المنافقون، ولهذا كان استعمال ضمير الجمع. ولا أدرى أهذا الذى يقوله الفراء شيء خصت به الآية، أم هو الجائز فى كل كلام؟ وإذن تكون الفوضى والتخليط.

ورأى ثـان أن (الذى) مفرد لفظا، لكنه فى المعنى نعت لما له أفراد، والتأويل على هذا مثلهم كمثل الجمع الذى اسـتوقد نارا. ولا أدرى هل اشـترك الجمع فى إيقاد النار أو عهدوا به إلى أحدهم، فناب عنهم فى التعبـير كما ناب عنهم فى الإيقاد. ورأى ثالث يشـبه هذا فى دلالته، وإن خالفه فى صياغته[2].

لم يبـقَ إذن إلا أن نرجع إلى الآية، ونعيد النظر فيها، لعلنا نهتدى إلى رأى نرتضيــه، فمـاذا هنـاك؟ هناك ضمير حولــه يطابق مرجعه، وضمير كل من (نورهم- وتركهـم- لا يبصرون) لا يطابقه، وليس لها مرجـع مذكور، فهـل علينا إذا ادعينا أن مسـتوقد النار ليس وحيدا، ولكن له أصحاب يشاركونه فى الصورة، رمزت إليهم الآية بضمائرهم، وغنيت بذكرها عن ذكرهم، فالضمير يشير إلى صاحبه، ويكنى عنه.

فأين نجد هؤلاء الأصحاب؟ نجدهم فى القرآن نفسه، إذا التمسناهم حيثمـا تذكر نـار الدنيا نعمة للناس ومتاعا، كمـا ذكرت هنا فى هذه

---

(١) معانى القرآن ١٥.

(٢) البحر المحيط: ١: ٧٤- ٧٦، روح المعانى ١: ١٥١، ١٥٢.

الآية، هم إذن في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[1]؛ أي النازلين في القواء، أي القفر.

والقرآن كلٌّ متآلف، وصرح متماسك، فإذا نحن وصلنا هذه الآيات بآية البقرة، وقرنا مستوقد النار هنا إلى أصحاب النار هناك جاز لنا أن نقول: إن مثل المنافقين عند الله كمثل جماعة من سراة الليل، وجدوا في أنفسهم حاجة إلى التعريس لعلهم يصيبون شيئا من راحة ومتاع، وها هم أولاء قد عنَّ لهم منزل صالح لما يبتغون، فأتوه، وألقوا رحالهم، وتقدم أحدهم فأوقد نارا وفاء لمطلب يراد، فاشتعلت النار، وأضاء نورها، ثم لم تلبث أن طفئت، فإذا هم جميعا مظلمون.

فأما سرى الليل فيحكي هنا رحلة الحياة الضالة التي يحياها هؤلاء المنافقون، وأما الإحساس بالحاجة إلى التعريس فيحكي إحساسهم بالحاجة إلى ثقة المؤمنين بهم واطمئنانهم ليتقوا سخطهم وما قد تجلبه عليهم المناقضة والخلاف، وما لهم في ذلك حيلة إلا أن يتملقوهم، ويقولوا لهم بألسنتهم مثل ما يقولون. وأما النار التي استوقدها صاحبهم فهي الكلمات المؤمنة يقولها كل قائل منهم لمن يلقاه من المؤمنين، فتخرج من بين شفتيه ولها وميض وإشراق، وإن كانت لتخفى تحتها

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٧١- ٧٣.

ظلامــا حالكا، كالنار الموقدة، تضــيء ما حولها، وإن من تحتها لرمادا هامدا. وإذا ما انقلب إلى شــياطينه، وخلا إليهم لبس لبوســهم، وكان واحدا منهم في سره وجهره، فإذا هم جميعا من الضالين المكذبين.

أمــا وأد البنــات[1] فإثــم كبير، لم يكــن يتعاطاه إلا قلــة من عرب الجاهلية، أما الكثرة الغالبة فكانت تكرم الأنثى، ولا تبخسها حقها، على قــدر ما تأذن به حياة البادية، وتقاليدهــا الموروثة. فهذا مرة بن محكان ينزل به أضياف له، فيدعو زوجه في رقة بالغة وعذوبة فائقة أن تنهض إلى رحالهم، فتضمها إليها إذ يقول:

يا ربةَ البيتِ قومي غيرَ صاغــرةٍ ضُمِّي إليكِ رحالَ القومِ والقربا[2]

وهــذا معن بــن أوس ينكر على من يبغض بناته بغضا، ويشــيد بما آتاهن الله تعالى من حنو ووفاء، فيقول:

رأيتُ رجالا يَكرهون بناتَهــم وفيهنَّ لا تكذب نساءٌ صوالــحُ

وفيهنَّ- والأيام يَعْثُرْن بالفتــى نــوادبُ لا يمللنه ونــوائــحُ[3]

وهــذا أب كان يطمع أن يرزق مولودا ذكــرا، فجاءته زوجه بأنثى، فغضب وهجر بيته، ونزل على جار له، فقالت زوجه تعاتبه في وداعة ورفق، وتحاول أن ترد عليه ما عزب من صوابه فتقول:

---

(١) هذا هو المثال الثاني الذي سيبين فيه الكاتب التخالف بين الضمير ومرجعه.

(٢) ديوان الحماسة: ٢: ٢٤٢.

(٣) الأمالي: ٢ : ١٩٠.

ما لأبى حمزةَ لا يأتينـــا يَظل فى البيتِ الذى يلينا
غضبانَ ألا نَلِدَ البنينـــا ليس لنا من أمرِنا ما شينا
وإنما نَأخذُ مـــا أعطينـا ... ...

ويسمع الأب الغاضب الرجز، فيهرع إلى بيته أسفا، فإذا الأم تناغى صغيرتهـا فى حنان وحبٍّ أصيل، فيثـب إليها، ويلتقط الطفلة من بين يديها يضمها إلى صدره مشـوقا نادما. ومن سادة العرب من كان يفتدى الموءودة من حرِّ ماله؛ رحمة بها وإبقاء عليها.

وهناك الشـعراء الغزلون، كانوا يلهجون بالأنثى، ويتزلفون إليها رغبة وشوقا، أو حنينا وإكبارا.

أمـا أصحــاب الوأد فجماعة من قســاة القلوب، أضلهـم الله، وأعمى أبصارهم، فبدت لهم الأنثى كَلا ثقيلا، وخلقا عاجزا، لا تكسب رزقا، ولا تحمل رمحا، وقد تساق سبية فى غارة من متغلب ذى بأس شديد، فتجلــب عليهم الخزى والعــار، فهانت عليهم، وأنكـروا عليها حق الحياة، ورأوا أن بطن الأرض خير لها من ظهرها.

وقـد نهى الله عــن الوأد، وأكبرَ إثمه، وتوعـد عليه، ووعد مقترفيه أن يـرزق أولادهم ويرزقهــم معهم قــال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[1]،

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣١.

ويصف الله تعالى حال الأب من هؤلاء حين تجيئه البشرى بمولد أنثى، فيقول: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ ﴾[1]، ويلاحظ أن البشرى كانت بأنثى، وأن الضمير في كل من (يمسكه) و(يدسه) لذكرٍ، وإذن لم يطابق الضميران مرجعهما، ونحن إذ ننظر فى الآية لعلنا نهتدى إلى توجيه نرتضيه لهذا التخالف لا نجد فيها مما قبل الضميرين ما يصلح أن يكون مرجعا لهما إلا لفظ «ما» فى قوله تعالى : (ما بشر به)، فهو اسم موصول مشترك، يستعمل للمؤنث كما يستعمل للمذكر، فهو إذن واقع فى معناه موقع الأنثى، وهو فى لفظه مذكر، فيصلح أن يكون مرجعا للضميرين.

توجيه- لعمرى- سليم فى شرعة النحو، لكنه مشوب فى شرعة الذوق والطبع؛ لأن (ما) الموصولة موضوعة أصلا لما لا يعقل، ولا تستعمل للعاقل إلا قليلا، وبعون من التأويل، ثم إن إحلالها محل الأنثى هنا يجعل تأويل الآية: يتوارى من القوم من سوء الأنثى، وهو لا يتوارى من سوئها نفسها بل من سوء البشرى بها، كما يصرح به ظاهر الآية، وكما فى قوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ ﴾.

---

(١) سورة النحل الآيات ٥٨، ٥٩.

فلندع إذن هذا التوجيه جانبا، ولنلتمس سـر التخالف الذى ذكرنا عند الأب وما يجيش فى نفسه من مشاعر، ويدور فى خلده من خواطر، حين جاءته البشرى، سنراه- كما تصفه الآية ظاهرا وباطنا- أبا قاسيا حقـودا، لا تعطفه على أنثاه عاطفة من أبوة، ولا تأخذه بها نسـمة من رحمة، يبغضها أشـد البغض، حتى ليسـتحل أن يسـلبها حق الحياة بغيا وعدوا.

وهو أولى أن يسـلبها حقها فى اللغة أيضا، فلا يذكرها بضميرها الذى وُضع لها، حين يسائل نفسه عما يصنع بها، نفورا منها، وضنا به عليها كما يفعل المغيظ المحنق إذا أسـفل عمق، وليس أقرب منه، ولا أسرع إليه مـن ضمير المذكـر، فالذكر- لا الأنثى- هو الذى يـتراءى فى خياله وهو الـذى يغلبه علـى وعيه وانتباهه، إنه حلم اليقظـة ومنية النفس، وقرة العين، فالتخالف بين الضميرين ومرجعهما ينطوى إذن على لطيفة بارعة من لطائف الإعجاز الذى اختص الله به القرآن الكريم. إذ يصور حقد الأب رمـزا وإيماء بعد مـا صوره تصريحا وتقريرا، وهـى الإيماءة الدقيقة إلى خواطر السوء ومشاعر الحقد التى تضطرب فى نفس الأب الكنود.

وأما الأنعام[1] فقد ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم ثمانية وعشرين مرة، عوملـت فيها على ما يقتضيه ظاهر اللغة فى ضميرها والإشـارة

---

(١) هذا هو المثال الثالث الذى سيبين فيه الكاتب التخالف بين الضمير ومرجعه.

إليها، وفي الإسناد أيضا، فقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾[2].

وذكرت مرتين لمقصد واحد، لكن عاد عليها في إحداها ضمير المؤنث، وعاد عليها في الأخرى ضمير المذكر، أما الأولى ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[3]، وأما الأخرى فقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[4]

فالآيتان تذكران أن في خلق الأنعام عبرة، وفي لبنها نعمة، وتوشك العبارة فيهما أن تكون واحدة، وكل ما بينهما من فرق أن الأولى تذكر أن لنا منها سقيا، ثم إنها تعيد ضميرها المطابق لها كما تصنع سائر الآيات. أما الأخرى فتسمي الشراب الذي يخرج منها وتصفه، وتحدد مسيله، ثم تعيد عليها ضمير المفرد المذكر، دون سائر الآيات.

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٢١.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٨.

(٣) سورة المؤمنون الآية ٢١.

(٤) سورة النحل الآية ٦٦.

وقد نظر علماؤنا السابقون في هذا التخالف بين الضمير ومرجعه، فتفرقت بهم السبل فيه، فقال سيبويه في باب (ما لا ينصرف): «وأما أفعال فقد يقع للواحد، ومن العرب من يقول: هو الأنعام. وقال الله عز وجل: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾[1]، وقال في باب (ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غير الفعل): «وليس في الكلام... أفعال إلا أن تكسر عليه اسما للجمع»[2]، وفحوى هذين النصين أن سيبويه يرى أن صيغة أفعال جمع لكنه مصروف، وأن الإفراد لغة فيه. وإذن يكون تذكير ضمير الأنعام عنده آخذ على هذه اللغة فلا تخالف إذن في الآية بين الضمير ومرجعه.

وقال الفراء: «وأما قوله: ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ ولم يقل في بطونها- فإنه قيل والله أعلم إن النعم والأنعام شيء واحد، وهما جمعان، فرجع التذكير إلى معنى النعم إذ كان يؤدى عن الأنعام، ثم قال: وقال الكسائي: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ بطون ما ذكرنا، وهو صواب.»[3].

وقال الزمخشري: يجوز أن يقال في الأنعام وجهان: أحدهما أن يكون تكسير نعم...، وأن يكون اسما مفردا مقتضيا لمعنى الجمع، فإذا ذكر فكما ذكر نعم في قوله:

---

(١) الكتاب: ٢: ١٧، ٣: ٢٣٠.

(٢) الكتاب: ٢: ٣١٦، ٣: ٢٤٧.

(٣) معاني القرآن: ٢: ١٠٨، ١٠٩.

أكُلَّ عامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ   يلقحُهُ قومٌ وتنتجُونَه

وإذا أنث ففيه وجهان أنه تكسير نعم، وأنه في معنى الجمع[1].

وأكتفي بهذا القدر من آراء علمائنا الأولين، وهي آراء لها في المباحث اللغوية وزن كبير، لكنها- والأمر لله- لا تجيب عن سؤال لا يزال يحوك في الصدر، وهو: لماذا جاء ضمير الأنعام مفردا مذكرا في آية النحل دون سائر الآيات التي لها ذكر فيها، حتى آية (المؤمنون) على ما بينهما من تشابه كبير في المعنى والعبارة.

لم يبقَ إذن إلا أن نرجع إلى الآيات لعلنا واجدون عندها الجواب، ونحن إذ نفعل نجد آية المؤمنون لم تذكر من الأشربة التي تخرج من حيوان أو حشرة إلا لبن الأنعام- هو إذن في موطنه وحيد لا يقابله من نوعه مقابل، أما آية النحل فتذكر عسل النحل مع لبن الأنعام، حيث يقول الله سبحانه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[2].

فالأنعام ولبنها يقابلان هنا النحل وعسلها، لكن الأنعام تخرج لبنا، لا يختلف لونا ولا طعما ولا رائحة، أو يكاد. وهي إذن جمعٌ

---

(١) الكشاف: ١: ٥٢٨.

(٢) سورة النحل الآيات ٦٨، ٦٩.

عـددا، ومفـردٌ أو في حكم المفرد لبنا، ولا كذلـك النحل، فهي تخرج شـرابا مختلفا ألوانه، فأبيض، وأصفر، وأحمر، وأدكن. وهو مع ذلك- مختلف رائحة وطعما بحسـب ما ارتشـفه النحل من رحيق الثمرات، وهي إذن جمعٌ عددًا وعسـلا، وإذن يناسـب الأنعام هنـا ضمير المفرد المذكر، ويناسب النحل ضمير الجمع لغير العاقل، وفي ضمير كلٍّ إشارة دقيقة إلى خصائص ما يخرج منه من شراب.

ويصطنع القرآن الكريم هذا النوع من الرمز بالضمير في مواطن أخرى، منها، قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[1]، فضمير (يرضوه) مفرد، والله ورسـوله اثنان في العدد لكنهمـا واحد في حق الاختصاص بالإرضاء؛ لذلـك جاء التعبير هنا رمزاً بالضمـير، وترك التعبير عنها تصريحا لقولـه تعالى في مواطن آخـر: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[2]، ومن مواطن هذا الرمز أيضا قوله سـبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[3].

فهاتان الطائفتان تظلان على حالهما طائفتين ما أمسكتا عن القتال، أمـا إذا اقتتلتا فقد انفرط العقد وانتشـر الجمـع، وإذًا هما فرد لفرد

(١) سورة التوبة الآية ٦٢.

(٢) سورة النساء الآية ٨٠.

(٣) سورة الحجرات الآية ٩.

لا طائفة لطائفة وصح حينئذ أن يرمز لهذا التفرق بضمير (اقتتلوا) حتى إذا ثابتا إلى الرشد، وجنحتا للسلم، فقد رجعتا إلى التماسك والتضام؛ لأن الصلح لا يكون بين أحدهما، ولكن بين جمعيهما بالإنابة والتوكيل.

أقول قولى هذا وأضرع إلى ربنا جل وعلا أن يتقبل ما عسى أن يكون فيه من صواب، وأن يعفو عما عسى أن يكون فيه من خطل، ما كان إلا من أخذ بسبب من أسباب حكمة إنزال القرآن الكريم، كما فى قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

□□□

---

(١) سورة ص الآية ٢٩.

٤ - من وحى الزيادة فى القرآن الكريم[1]

سعدتُ من قبلُ بالحديث إلى المؤتمر الموقَّر[2] عن الزيادة في القرآن الكريم، ويطيب لى اليوم أن أعود إلى الحديث عنها، لا تَزَيُّدًا فيها، ولا إلحاحا عليها، ولكن توثيقا لقضيتها، وتأييدا لأحكامها، بعد ما يسر اللهُ فيها من أمر، وهدى إليها من رأى، وفسح من مجال، فما وسعنى إلا أن أنشط لها، مشوقا إليها، لا آلوها جهدا، ولا أدخر فيها وسعا، كأنما كان يهيب إليها مهيب، ويدفعنى إليها دافع من قول القائل:

لقدْ وجدتُ مكانَ القولِ ذا سعةٍ ... فإنْ وجدتَ لسانًا قائلا فقلِ

ولقد وجدت مكان القول ذا سعة حقا، وهل القرآن الكريم فى استفاضته وجزالة عطائه إلا فيض من اللهِ عميم، لا تحده حدود ولا يحيط به محيط؟

وكلما زاده الباحث نظرا زاده علما وفضلا، حتى يبلغ مأمله، أو يبلغ الجهد منه هو مبلغه، فينصرف فى الحالين، وما أصاب منه إلا نُغْبة شارب، أو حسوة طائر.

---

(١) نشر هذا البحث فى مجلة مجمع اللغة العربية القاهرى، ج٤٧/ ٤٣، رجب ١٤٠١هـ/ مايو ١٩٨١م.

(٢) يقصد مؤتمر مجمع اللغة العربية القاهرى.

وليست الزيادة فيما عهدنا فيه ورأينا منه دخيلة عليه، ولا لصيقة به، لكن لها فيه مقاما معلوما، لأن العربية لغته، والزيادة فيها ظاهرة مقررة، وسنةٌ مُتَّبَعَةٌ، ولها فيها عمل مأثور. ويمكن أن تنزل منها في صلتها بها وموقعها منها بمنزلة النافلة المكملة من الفريضة المكتوبة، كلٌ له في عبادة الله عمل، وكلٌ له من ثوابه نصيب.

إن الزيادة في أعم مزاياها تُكسب الكلام فضل توكيده، وتزيد في بعض المقامات فتؤتيه حظا من زينة الفن، بما تقضي به من أسرار، وتومئ إليه من لطائف، فإذا هو في النفس أوقع، ولها أمتع، وإذا هي به آنس، وله أطلب، وإليه أميل.

وبلغ من حفاوة العربية بالزيادة وافتنانها فيها أن جعلتها أنواعا متميزة، فنوع تؤديه بعض حروف المعاني، وهو أشهر الأنواع ذكرا، وأشيعها استعمالا، ونوع يكون بزيادة التاء في أول بعض ظروف الزمان، كقول ابن عمر- وقد ذكر لرجل مناقب عثمان-: «اذهب بها تالآن إلى أصحابك»، ويقول أبوزيد: «سمعت من يقول: حسبك تالآن»، يريد الآن، ويقول أبو وجزة السعدى:

العاطفونَ تحين ما من عاطفٍ   والمطعمونَ زمان أينَ المطعمُ؟[1]

ونوع يكون بذكر «ذا» في القسم، كقول زهير بن أبي سلمى:

---

(1) الإنصاف: ١: ١٠٨، ١١٠.

تَعْلَمَن ها لعمر اللهِ ذا قسمًا فاقصد بِذَرْعك وانظر أين تَنْسَلكُ[1]

أو بزيادتها في غيره، وفى هذا النوع يقول الأزهرى: «وسمعت غير واحد من العرب يقول: كنا بموضع كذا مع ذى عمرو؛ أى: كنا مع عمرو»[2].

وليس لهذين النوعين الأخيرين ذكر فى القرآن الكريم؛ لأنهما أشبه باللّهجة المجفوة منها باللغة المتداولة.

وحق علينا أن نذكر التكرار هنا مع الزيادة، وهو إن لم يكن منها عُرفا واصطلاحا، فهو منها نمطا وأداءً معنى؛ لأنه يقوم على إعادة الكلمة أو الجملة، وفى الإعادة تمكين للمعنى وتعزيز لجانبه.

ألا حَبَّذا هند وأرضٌ بها هند وهند التى من دونها النأىُ والقربُ

ومن تكرار الجملة قول مهلهل بن ربيعة: «على أن ليس عدلا من كليب»، وهى عبارة جعل منها الشاعر صدرا لكل بيت من مرثيته لأخيه كليب، فكررها بذلك ثمانى مرات، ومنه قول ليلى الأخيلية:

«لنعم الفتى يا توبُ كنتَ ولم تكن»، وهى عبارة جعلت منها الشاعرة صدرا لكل بيت فى مرثيتها لتوبة بن الحمير، فكررتها ثمانى مرات كذلك.

---

(١) ديوان زهير. ١٨٢.

(٢) اللسان: ذا

ومن تكرار المفرد في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾[1].

ومن تكرار الآيات فيه قول الله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

وقد ذكرت في سورة (الرحمن) إحدى وثلاثين مرة، وقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[3]، وقد كُررت في سورة (المرسلات) عشر مرات.

وقد اختار الله العربية لسانا للكتاب الكريم، وذكر ذلك في مواطن منه، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[4].

ولا يرضى- جل شأنه- أن يكون قسمة بين العربية والأعجمية، فيقول: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّۗ ﴾[5].

---

(١) سورة الرعد الآية ٥.

(٢) سورة الرحمن الآية ١٣.

(٣) سورة المرسلات الآية ١٥.

(٤) سورة النحل الآية ١٠٣.

(٥) سورة فصلت الآية ٤٤.

ثم تحدى العرب أن تأتي بمثله أو بشيء من مثله؛ إعظاما لقدره، وإعجازا لمناوئيه، فقال – سبحانه – فيما قال من ذلك: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾[١].

ومضت عادة الناس في التحدى أن يكون بين عملين يتفقان في الخصائص والسمات أتم اتفاق، وإلا فقد جانبته الحكمة وعداه الإنصاف، ولم يؤمن حينئذ أن يخفى فيه وجه الحق، ولم يمتنع على المقصر فيه عن الغاية أن يجد ما يقول؛ انتصارا لقصوره حين المخاصمة والحجاج.

وما كان الله في حكمته البالغة، وعدالته المطلقة ليتحدى العرب بالقرآن ثم يجيئهم به غير جارٍ على سَنَن العربية، ولا جامعٍ لما أوتيت من المزايا والسمات، وما كانت الزيادة وحدها حينئذ هي التي تُنفى عنه من بين فنون التعبير فيه، ومكانها من العربية مكانها.

على أن في القرآن آيتين تشهدان أن فيه للزيادة مكانا لا ينبغي إنكاره ولا الاستراية به، وتستند إحداهما في شهادتها إلى الإعراب، وتستند الأخرى إلى المعنى، فأما التي تستند إلى الإعراب فقوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾[٢]، فلفظ (خالق) هنا مبتدأ[٣]، وحق إعرابه

(١) سورة البقرة الآية ٢٣.

(٢) سورة فاطر الآية ٣.

(٣) المقتضب: ٢: ٥٥، ٥٦.

الرفــع بالضمة، لكن ذكر (من) الزائدة قبله منع الضمة أن تظهر وجاء مكانها بالكســرة، وهو حينئذ مجرور لفظا مرفــوع موقعا، يدل لذلك وصفه بلفظ (غير) بعده مرفوعا لا مجرورا.

ولو كانت «من» أصيلة لكان لفظ «خالق» مجرورا لفظا وموقعا، ولجاء لفظ (غير) مجرورا، ولم يجز الرفع فيه.

وأما التي تســتند إلى المعنى فقوله ســبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾[1]، وفي الآية الأخرى يعظم هذا القسم، و(لا) التي قبل الفعل (أقسم) يجب- مطاوعةً لحكم المعنى- أن تكون زائدة، وإلا تناقضت الآيتان؛ إذ تنفي الأولى أن الله يقسم بمواقع النجوم، وتخبر الأخرى عنه- سبحانه- أن القسم بها عظيم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

لا علينا بعد هذا كله أن نقول إن المنطق في تسلســل خطواته وسطوة برهانــه، وإن واقع اللغة فــي أصالة بيانه واســتحكام أمره، ليقضيان بــأن للزيادة في القرآن مكانا، كما لها مكان في كل نص عربي ســواه. ويبدو لي أن الذين ينكرونها فيه وينفونها عنه لو رجعوا إليها، ونظروا فيها نظرا موضوعيا مجردا لا ســلطان عليــه للعاطفة- لخلا لهم وجه الحقيقــة، فرأوه واضحا غير ذي خفاء ولا لبس، ولرأوا من آراء العلماء فيهــا، وأقوالهم عنها، وفيمــا يفتح الله به عليهم ما يطيب من مغالقها به نفوس، ويذهب بالضيق والنفرة عنهم.

---

(١) سورة الواقعة الآية ٧٥.

سيجدون العلماء يقولون مثلا عن (من) الزائدة: إنها تُفيد النص على عموم النفى فى الأسلوب[1] لأنها مختصة بالنكرة تدخل عليها، بالنفى أو شبهه تقع فى حيزه، وتدل النكرة فى حيزه على العموم. وسيجدونهم يقولون عن (أن) حين تزاد بعد (لما) الحيثية: إنها تدل على أن شرطها وجوابها يقعان فى زمنين متجاورين حتى كأنهما يقعان فى زمن واحد[2]. وسيجدونهم يقولون: إن (لا) النافية فى مثل: (سافر بلا زاد) تعد زائدة[3]، وإن كان المعنى فى الأسلوب مبنيا على النفى، وزيادتها تنقل معناه من النفى إلى الإثبات.

غير أنهم قد رأوها هنا قد ذكرت بين باء الجر ومجرورها، وقد عملت الباء الجر فيه، ولم تمنعها «لا» منه، فعدت لذلك مقحمة لا غناء عندها فى حكم الإعراب، وإن كانت لَتُعدّ فى حكم المعنى أصيلة متمكنة.

ولعل أشد ما يحدثه الحرف الزائد فى الكلام من أثر يوجبه هو الذى تحدثه (ما) حين تزاد على (إن) الشرطية فى نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾[4]، ذلك أن (إنْ) الشرطية لا يجوز

(١) المغنى: ٢: ١٥.

(٢) المغنى: ١: ٣٠، ٣١ والكشاف: ٢: ١٧٩.

(٣) المغنى: ١: ٢٨٣.

(٤) سورة مريم الآية ٢٦.

أن يؤكد فعل شــرطها؛ لأنها تفيد فــى الخبر التوقع والظن[1]، وتوكيد الشــرط لا يصادف موقعه الملائم فــى الكلام، إذ لا يقوم الخبر فيه على التبــين والعلم، حتى إذا زيدت (مــا) على (إن) قوى المعنى بما يجعله على شبه من اليقين فيرجح التوكيد.

وقد ذكر أســلوب (إن) هذه فى القرآن ست عشرة مرة، وجاء فعل الشــرط فيها كلها مؤكدا بالنــون، وأرى لذلك أن توكيده واجب؛ لأن القرآن التزم توكيده حينما ذُكِر، لا يستثنى من مواضع ذكره موضعا، وذلــك عندى يوجب التوكيــد، وإن رآه العلماء جائزا، وحجتهم فيه أنــه ذكر غير مؤكد فى شــواهد من الشــعر كقول ســليمى بن ربيعة الضبى:

زَعَمَت تماضر أنَّنى إمَّا أَمُــتْ   يُسَدِّدُ أُبَيْنُوها الأَصاغرُ خلتى

لكن للشــعر لغته المتميزة، ورخصه المقررة، وليس كل مستساغ من الرخص فى الشعر بمستساغ فى النثر، فكيف فى القرآن الكريم؟

وقد اضطر صاحب الشاهد فأتى فيه برخصتين، أولهما: إغفال توكيد فعل الشــرط بعد (إما)، وأخراهما: تصغــير (الابن) فيه على (أبين)، فقطعت همزة (ابن)، وما هى بمقطوعة، فقال فيه: (أبينون).

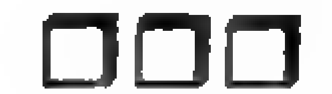
وإنمــا يصغر (الابن) فى الفصيح علــى (بنى)، ويجمع عند الحاجة على (بنون)، لا (أبينون).

---

(١) الأزهية: ١٥٢.

وإنــى- بعد كل ما قدمت من بيــان- لأعيذ الزيادة أن تكون عبثا من القـول فارغـا أو لغوا منه باطلا، فما هى فــى واقعها إلا مطلب كريم، يســعى إليه، ويرجى عنده العون لأمر يــراد منه، أو هى رفد مرفود، فيه للعبارة ثراء، وفيه للمعنى توكيد وتمكين.

أما بعد فاللّهم ربنا إن كان هذا- الذى قلت عن الزيادة استلهاما من كتابك- هو الحق من عندك، فتقبله منى، واجزنى به، وإلا فاعف عنى فيه، واغفر لى إنك أنت العفو الغفور.



٥ - من أسرار القرآن الكريم[١]

ونعني به هنا أن يأخذ الأسلوبُ في حركات إعرابه، أو نظْم عباراته، أو تساوق ضمائره، أو دلالة بعض مفرداته على وجه يخالف أصولَ العربية المقررة، أو يخالف الشائع المتداول منها؛ ذهابًا مع المعنى، وإيثارًا لمقتضياته على مقتضيات اللفظ، وفي العربية شواهد من هذه الأوجه، لا يختص بها الشعر، ولكنها قسمة بينه وبين النثر، إلا أنها في الشعر أكثر عددا وأشد تنوعا؛ لأن النثر أوسع مجالا وأيسر علاجا، والتأثر فيه أقدر على التصرف والتغيير، أما الشعر فإن له مآزقَ حرجةً ومسالكَ ضيقةً، إذا دُفع الشاعر إليها وحمل نفسه على رياضتها لم يسعه إلا التكلف أو الترخص، وربما استجاز ما لا يستجيز في السعة وحين الاختيار، ليحكم قافية، أو يقيم وزنا.

ويختلف الشعراء في مبلغهم من الاجتراء على اللغة اختلافا كبيرا، فمنهم مقلٌّ، ومنهم مكثر، ومنهم عدْل بينَ بينَ، وليس يرجع ذلك إلى اختلاف ملكات الشعر فيهم قوة وضعفا أو مطاوعة وامتناعا، كَلا،

---

(١) لم أهتد إلى موضع نشر هذا المقال، وإنما حصلت على أصله من مكتبة الاستاذ علي النجدي ناصف، ضم ما مكتني من الاطلاع عليه واقتنائه ابنه الاستاذ الدكتور جلال علي النجدي ناصف، الوكيل الأسبق لكلية الزراعة، جامعة القاهرة.

فإنما نعنى هنا الشعراء المقدمين من أصحاب المواهب العالية فى الشعر، وهؤلاء أجدر ألا يكون بينهم خلاف يذكَر فى رسوخ الملكة والاقتدار على النظْم، ولكن مرجعه إلى خلاف فى أسلوب التفكير وطريقة التناول.

فمنهم المتسهل السمح يلتمس معانيه من قريب فى غير جهد ولا عناد، فيتوافى إليه الشعر أجمعَ لخصائص الفطرة، وأبعدَ عن تزويق الصنعة، ومنهم المتشدد البعيد الغور يمعن في طلب المعنى، ويغلو فى الغوص عليه، غيرَ آلٍ فيه جهدا ولا وقتا، فيخرج شعره أدقّ معنى، وأبين صنعة، وأكثر تعرضا للضرورة والاستكراه.

وإذا كان الشاعر مع ذلك متعاليا أو معجبا بنفسه، لم يبالِ قُرّاءه، ولا اكترث لنقاده، فيخرج شعره على ما يقع له لا يميز جيدا من ردىء، ولا يرى أن بعضا منه آثر من بعض بالرواية والذيوع.

ومن أمثلة خلاف الظاهر فى الشعر قول الأخطل يهجو قيسا، ويخاطب بنى سليم من بينهم:

كُرّوا إلى حَرَّتَيْكُمْ تَعْمرُونهما كما تَكر إلى أوطانِها البقرُ

فجعل لبنى سليم حرّتين، ولم تكن لهم إلا حرّة واحدة.

وقول الآخر، يرويه سيبويه:

كُلُوا فى بعضِ بطنِكم تعفُّوا فإنَّ زمانَكم زمنٌ خميصُ

فجعل لأصحابه بطنا واحدا، وإن كانوا لجمعا من الناس.

وقول الفرزدق:

فلو رَضِيَتْ يَداى بها وضَنَّتْ   لكان علىّ للقــدر الخيــارُ

فوضع (ضنــت) لليدين، وإنما هى لليد الواحــدة، أما اليدان فلهما (ضنتا).

ومــن أمثلته فى النثر قولهم: شــابت مفارقه، وليس للإنســان إلا مفرق واحد، كأنهم يريدون أن الشــيب تمشى فى رأسه كله، وهو فى المفرق أظهر.

فكأن رأسَــه كلَّه مفارق، وقولهم: عظيم المناكب، وليس للإنسان إلا منكبان. كأنهم يريدون أن منكبيه لعظمهما لا يبدوان كما يبدو المنكبان بل كما يبدو جمعٌ من المناكب.

وليست هذه الظواهر التى ترى فى اللغة سواء فى الحكم، ولا للعلماء فيها رأى جامع.

والمشــهور أن بعضها جائز، ولا حرج فى استعماله والقياس عليه، وبعضهــا محظور لا يصــح تجاوزه ولا قياس مثله عليــه، والمفهوم من مجمــل كلامهم فــى القضية أن المعنى هــو وحده الفيصــل فيها إباحةً وحظــرًا، لأنه روح الــكلام والمقصود بالتعبير، فكل ما لا يلبســه، أو يحول دون فهم المراد به، فهو سائغ مقبول.

وخلاف الظاهر بهذا المعنى قليل فى العربية: شعرها ونثرها إذا قُرن إلى ما فى القرآن الكريم منه. وإذا كان هو فى الشعر مظنَّةَ تكلف واضطرار فى أكثر الأمر... فإنه فى القرآن مدار حكمة ووحى بلاغة وبيان.

وإذا كنا قد علمنا أسرارا منه، فإن ما نجهل من أسراره أكثر. ولعلنا قـادرون فى الغد على فهم ما نجهل منه اليوم، يعيننا عليه ويمكن لنا منه اتسـاع آفاق المعرفة وتنوع أسبابها، وسـيظل هذا دأبنا معه ودأبه معنا أبدًا، يزيدنا علما كلما زدناه بحثا وكلما زادت أسبابنا إليه تنوعا، لا أسـراره تنفد، ولا نحن نكف عن المحاولة والدأب بحثا عن حقيقة منه مجهولة، وكشفًا لسر فيه مكنون.

وما مثلنا معه- من هذا الجانب- إلا كمثلنا مع الكون الأعظم: بهرتنا آياتـه وشـاقتنا عجائبه إلى التفكـير فيه واطلاع أسـراره، فعلمنا منها ما قدرنا على علمه، وسنظل نطلب المزيد منها ما بقيت الحياة فيه.

ولا يحسـبن الباحث الذى يكتنه سـرًّا أو أسرارا فى آية أو آيات من الكتـاب العزيز- أنه قد اسـتأداها كل ما عندهـا، فلم يبق لقائل غيره مقـال فيها. هيهات، فمـا أرى ذلك إلا من خطأ التقدير، أو المغالاة فى تزكية النفس وإحسان الظن بها، فإنما هو فى الحقيقة لم يبلغ منها إلا بمقدار حظه من الفهم عنها والتهيؤ لوحيها، وعلى حسب الحال التى يكون عليها حين النظر والدراسة.

ولعلـه إذا رجع إليه أكثر علما وأتم نضجـا، أو إذا رجع إليها على حال هو فيها ألمَعَ ذهنًا، وأصفى رُوحًا، وأسـطعَ إشـراقًا أن يعلم منها جديـدا، أو يضيف إلى ما علـم منها مزيدا لم يكن يعلمه من قبلُ. وأول ما نبدأ به هنا من خلاف الظاهر فى القرآن الكريم:

مفردات بمكان الجموع:

الضيـف: يذكر اللغويون أن الضيف من الكلمات التي يمكن أن تقال للواحد والجمع على سـواء، وإنها مع ذلك لتجمع على أضياف وضيوف وضيفـان. لكن القرآن الكريم لم يسـتعملها تعبيرا عـن الجمع إلا بلفظ المفرد، فيقول الله سـبحانه في سورة (الحجر ٥١، ٥٢) ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]، ويقـول فـي سـورة (الذاريـات: ٢٤- ٢٧) ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2]، ويقول في سـورة (هود ٧٧، ٧٨): ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾[3]، وذكـر ضيف لـوط كذلك بلفظه المفرد مرة أخرى في سـورة (الحجر ٦٨) ومرة ثالثة في سورة (القمر ٣٧).

---

(١) سورة الحجر الآيات ٥١، ٥٢.

(٢) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ – ٢٧.

(٣) سورة هود الآيات ٧٧، ٧٨.

فالضيف الذين يتحدث القرآن الكريم عنهم لم يكونوا ضيف ناس من الناس في عمومهم، ولكنهم ضيف إبراهيم ولوط عليهما السلام، رسولان من رسل الله الكرام، ورسل الله هم صفوته من خلقه، وأكرمهم عليه سبحانه؛ لأنهم حملة رسالاته ودعاة الناس إلى صراطه، آتاهم من الفضائل البشرية ما لم يؤتِ غيرهم، ليكونوا أئمة الناس بالدعوة والأسوة جميعا.

وقِرَى الضيف لا يكون إلا عن سماحة وأريحية فهو إذًا دِين وخلق وعقل؛ دِين لأنه يدل على الثقة بالله وحسن الاعتماد عليه، وصدق الرجاء فيه. وخُلق لأنه يدل على المروءة والنخوة وإلف الناس والارتياح لمشاركتهم له في الرزق. وعقلٌ لأنه يدل على فهم صحيح لمعنى السماحة، وتقدير حكيم لقيمة المال ومكانه من صاحبه كما يجب أن يكون.

ومَنْ غيرُ الأنبياء تكتمل السماحة فيه، ويدرك منها هذه المعاني حق إدراك، ويأخذ نفسه بالتزامها في غير توجس ولا تردد؟

وهذا رسول الله محمد صلوات الله عليه يرغِّبُ في قِرَى الضيف، ويعلى من شأنه، ويريده خُلُقًا فاشيًا في الناس، فيقول فيما يرويه الإمام أحمد في مسنده: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخِر فليكرمْ ضيفه)... الحديثَ.

ومن قبله إبراهيم- عليه السلام- لم يكفه في إكرام ضيفه، مع إنكاره إياهم وجهله من هم، أن يلطفهم بما يسدّ الحاجة، ويدفع الجوعة، بل جاءهم بعجل سمين فقربه إليهم، ودعاهم إليه، وقد كان في بعضه

كفاية وبلاغ إذ كانوا ثلاثة، أو عشرة أو اثنى عشر كما يقول المفسرون، ولكنه قِرَى الأنبياء وكفى.

أما لوط- عليه السلام- فقد كان قراه إياهم من نوع آخر، أعجله سوء ظنه بقومه أن يجيئهم بطعام، بل شغله أن يكون منه على بال، قبل أن يكفل لهم الأمن والطمأنينة.

لقد هاله أمر الضيف وأهمه ما عسى أن يصيبهم من قومه، ولكنه اعتصم بنخوته واحتفظ برباطة جأشه فلم يتخل عنهم، ولا تهاون في حقهم عليه، وقف دونهم يجادل فيهم، ويفديهم ببناته أنْ يكنَّ أزواجا لمن يريد من قومه، لا يستثنى أحدا، ولا يشترط شرطا.

ومن يكن على مثل هذا الإيثار المطلق والحمية البالغة يكن في إكرامه لضيفه مثالا يُحتذى، ويكن الحديث عنه حديثا عجبا.

فإذا كانت قصة ضيف إبراهيم ولوط- كما يقصها القرآن- تصور مبلغ النبيَّيْنِ الكريمَيْنِ من السماحة أعمالا واقعة، ومشاهد متخيلة- فإن لفظ الضيف بإفراده تعبيرا عن الجمع يصورها شعورا عميقا وطبعا أصيلا. فهو يوحي بأن أضيافهما لم يكونوا، في رأيهما والتفكير في أمرهما والتدبير لهما، أضيافا ذَوِى عددٍ، يُعد لهم على قدر عددهم، ولكنهم كانوا في خفة المئونة، وقلة الكلفة، ووفرة القِرى، وحسن الإقبال، وحفاوة اللقاء كما يكون الضيف الواحد ينزل بمضيف جواد. وتبارك الله أبلغ القائلين.

□□□

٦ - بين القرآن والنحو[١]

دعـا مجمع اللغة العربية فى مؤتمـر العام الماضى إلى محاضرة عامة يلقيها الأسـتاذ الدكتور شـوقى ضيف عن «تيسـير النحو»، وقد خَفَّ لشهود المحاضرة والاستماع لها جمهرة من العلماء، وعُنى جمع منهم بالتعليق عليها، فكان مما عُلِّقَ به عليها دعوة إلى نحو يستمد أحكامه من القرآن الكريم.

ومـا من دعـوة إلى عمل يقوم على أسـاس من القـرآن، أو يأخذ منه بسـبب، أو يكون منه على حرف إلا قوبل بالترحاب وحسـن القبول؛ تيمُّنًا بالقرآن، وتساميا إليه فى أفقه الأعلى.

ولعـل مما يزيـد هنا من الارتياح لهذه الدعـوة أن النحو فى جفائه وعبوسـه حقيق أن يفيد من القرآن فى سماحته وإشراق ديباجته، فإذا هو ألين جانبا وأخف محملا.

ومهما يكن من أمر فإن الدعوة إلى نحو آخر يؤخذ من القرآن حَرِيَّة أن تظفر بحظها المقدور من الحفاوة والجد لأنها دعوة إلى جليل من الأمر،

---

(١) تلا البحث الدكتور مهدى علام فى الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين نيابة عن الأستاذ على النجدى ناصف لوفاته. ونشر هذا البحث فى ج٤٩: مجلة مجمع اللغة العربية القاهرى رجب ١٤٠٢هـ/ مايو ١٩٨٢م.

فمــكان النحو بين علوم العربية رفيع لا يتســامى غـيره إليه، ولعلى إذ أقبل عليها فأدرســها، وأرى رأيا فيها أن أكون قد أديت لها واجبا، وشاركت فى العمل لها بنصيب.

والنحــو الذى تعنيه هذا الدعوة- بلا مراء- نحــو للعربية كلِّها لا نحو للقــرآن من بينها؛ لأن النحو المســتمد منه ســيقوم مقامه منها، ويغنى غناءه فيها، أما نحو القرآن فإنما هو للقرآن وحده، والقرآن نص فيها، وليس بها كلّها فى اتساع آفاقها وتعدد فنونها.

والنحوُ حين كان يســترفد اللغة إبانَ نشــأته لإقامة القواعد وتقرير الأحــكام- لم يكن يقتصر فــى هذا على نوع منها ولا فــن من فنونها، ولكنه يســتوعبها طلبا واقتضاء، سواء عليه جدّ القول وهزله، وشريفه ورذله، وهو- لا محالة- وجد فى كل أولئك حاجته عند اللغة، أليست هى ترجمان الحياة ومرآتها بكل ما يضطرب فيها من شئون؟!

وتحتوى اللغة فيما تحتوى على ضروب من الأساليب كثيرة لها فى صنــع النحو وإقامة بنيته عمــل غير منكور بفضل ما أودعت من حقائق غفــل، لها ذِكْرٌ فى أبواب شــتى من النحو لهذا يحــرص النحاة عليها ويحتفــون بها، ويعرضونها فى كتبهم ليديروا عليها بحوثا، ويتخذوا منها شــواهد وحججا، وقد اخترت بعضا من أكثرها شيوعا، ثم رحت أتفقــد لها نظائر فى القرآن الكريم فلــم أعثر على أثر فيه، وهذه هى: أســلوب المنادى الشبيه بالمضاف، وأسلوب الاســتثناء بغير إلا وغير،

وأسلوب التنازع الذى أُعمل فيه العامل الأول، وأسلوب الاشتغال الذى يقع فيه المشغول عنه بعد أداة مختصة بالدخول على الفعل، وأسلوب حذف خبر المبتدأ حين تغنى عنه حال لا تصلح أن تكون خبرا له.

وكنتُ أود لو أتيح لى أن أعرض هذه الأساليب ومع كل أسلوب شواهده المتعددة من نظم القول ومنثوره، لكن منع من ذلك اتقاء الإسهاب وما يعقب من ملال.

وليس للقرآن قراءة واحدة يُقرأ بها، ولكنه يُقرأ بقراءات كثيرة ومتنوعة، ولم يكن بُدٌّ من كثرتها وتنوعها ؛ لأن القرآن إنما أنزل فى أمة كانت قبائل شتى، ولكلٍّ قبيلة لهجتها الخاصة، ولم يكن الرسول -صلوات الله عليه- يلتزم القراءة بلهجة واحدة لئلا يشق على أصحاب اللَّهجات الأخرى.

وتابعه على ذلك أصحابه والتابعون، ثم أخذ عنهم قرَّاء ثقات مأمونون، يتعلمون ويُعَلِّمون. ومضى الأمر على هذا النحو كُلَّما مضت منهم طائفة خلفتها أخرى، تحمل الرسالة، وتؤدى الأمانة على مَرِّ الزمان.

ويتنوع الخلاف فى القراءات تنوعاً كثيرا، فخلاف فى حركات الإعراب كالذى فى قوله تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[1]. قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر:

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٦، والقراء السبعة: ٢٩٨.

(ونذرهم) بالنون والرفع، وقرأ أبو عمرو: (ويذرهم) بالياء والرفع، وقرأ حمزة والكسائى: (ويذرهم) بالياء والجزم .

وخلاف فى بنية الكلمة وحركاتها كالذى فى قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾[1] ، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائى (بئيس) على وزن فعيل، وقرأ نافع (بيس) بكسر الباء من غير همز، ورُوى عن نافع (بَيس)، بفتح الباء من غير همز على وزن فعل، وقرأ ابن عامر (بئس) على وزن فعل مع الهمز، وقرأ عاصم (بيئس) على وزن فيعل.

وهناك خلاف فى الهمز بالتسهيل والتحقيق وبنقل الحركة وإقرارها. وخلاف فى الياءات فى أواخر الكلمات، إثباتا وحذفا، وتسكينا وتحريكا، إلى ضروب أخرى فى الوصل والسكت والإدغام والفك. وهكذا، ولا يعلم إلا الله هل يمكن أن يستجيب القرآن مع هذا الخلاف لنحو جديد؟ ومعلوم أن تخالف الأصول يفضى إلى خلاف فى الفروع.

ولا يحدث الخلاف فى حركات الإعراب تغييرا فى معنى اللفظ المقروء ولا الألفاظ التى لها به صلة من صلات نظم الأسلوب، فهذا قول الله- سبحانه- يصف مكر الذين ظلموا أنفسهم، ويضرب قدرة

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٥، والقراء السبعة: ٢٩٦.

مكرهم على إزالة الجبال مثلا لتفاقمه، فيقول: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

قرأ الكسائى قوله: (لَتزولُ) بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، فتكون (إن) هى المخففة من الثقيلة، واللام الأولى هى الفارقة بينها وبين النافية. والمعنى على إثبات شدة مكر القوم. وقرأ سائر القراء (لِتزولَ) بكسر اللام الأولى ونصب الثانية، فتكون (إن) هى النافيةَ فى أسلوب الجحود، مَثَلُها كمثل (ما) فى ذلك، و(تزول) منصوب بأن مضمرة بعد اللام. والمراد بالجبال هنا آيات الله وشرائعه. والمعنى أن مكر القوم- وإن كان قادرا على إزالة الجبال- عاجز عن إزالة آيات الله وشرائعه؛ لأنها أرسخ من الجبال رسوخًا، وأشد تمكنا[2]. فليس ثمة خلاف إذن فى معنى الآية فى القراءتين.

وربما أثار الخلاف فى حركات الإعراب خلافا بين أئمة النحو، لا فى الإعراب وحده، ولكن فى الحكم الذى يستند إليه أيضا، كالخلاف فى قراءة كلمة (الأرحام) من قول الله عز وجل: ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾[3]، قرأها حمزة بالجر عطفا على

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤٦

(٢) الكشاف: ١: ٥٠٩.

(٣) سورة النساء الآية ١.

الضمير فى (به) من غير أن يعيد معها حرف الجر وهو حكم يجيزه الكوفيــون، ويعارضه البصريون فــى ملحمة حامية من الخلاف بين المدرستين.

وفــى القرآن كذلك آيات مشــكلة الإعراب، ولم يفــت قدامى النحاة أن ينظــروا فيها على نور من النحــو المأثور، فهدوا فيها إلى آراء رضوا عنهــا، واطمأنوا إليها، ومن هذا الآيات قــول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[1] فرفــعُ (الصابئون) وهو فــى موقع معطوف على منصوب مشــكل، وقد ذهبــوا فيــه إلى أنه مبتدأ حذف خــبره، وقدر تأخيره عن اســم (إن) وخبرها، كأنه قيل: إن الذيــن آمنوا والذين هادوا والنصارى (حكمهم كذا...) (الصابئون) كذلك.

ومنها قوله تعــالى: ﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

فعطف (أكن) بالجزم على (فأصدق) بالنصب مُشــكل كذلك، فجعل العطف على محل فأصدق مع تقدير ســقوط الفاء، كأنه قال: إن أخرتنى أصدق وأكن.

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٩، والكشاف ١/ ٢٦٧.

(٢) سورة المنافقون الآية ١٠

وربما سبق إلى الخاطر أن من الممكن تقليل الخلاف فى قراءة القرآن إذا نحن اقتصرنا فى تلاوته على القراءات السبع، وهى ما هى بين هذه القراءات، قوةَ سند وصحةَ لغة لرسم المصحف، وقد ألّف ابن مجاهد فيها كتابا جليلا، وقد حققه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، فأحسن تحقيقه، وأصبح الاعتماد عليه فى القراءات السبع أمرا ميسورا.

ونحن إذ نرجع إلى هذا الكتاب نستلهمه الرأى نرى الخلاف فيه بين السبعة كثيرا متشعبا يمنع القرآن أن يستجيب لوضع نحو منه بل إننى لا أبالغ إذا قلت: إن وضع النحو من القرآن فى قراءة واحدة، سبعية أو غير سبعية، أمرٌ غير ميسور أيضا، فكثيرا ما يخالف القارئ نفسه فى القراءة، فيقرأ فى موضع أو مواضع بقراءة، ثم يقرأ بغيرها فى موضع أو مواضع أخرى.

فهذه آية (كن فيكون) مثلا لقد ذكرت فى القرآن إحدى عشرة مرة، فقرأها ابن عامر بنصب (فيكون) ست مرات، وقرأها بالرفع فى الخمس الباقية[1]، بل ربما وقع الخلاف فى قراءة لفظ واحد فى سورة واحدة، فنافع وابن كثير يقرآن لفظ (الداعى) بغير ياء فى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾[2] فى الآية السادسة من سورة القمر، ويقرآنها بياء[3]

(١) إتحاف فضلاء البشر: ٨٩.

(٢) سورة القمر الآية ٦.

(٣) كتاب السبعة: ٦١٧.

في قوله: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾[1] في الآية الثامنة في السورة نفسها؛ وذلك لأن القراءة سنة متبعة، وتؤخذ رواية وسماعا، لا قياسا وتطبيقا.

إننا حين تمنينا على الله أن يجعل لنا من القرآن نحواً لم نطلب الأمر من مأتاه الأصيل؛ لأن القرآن ليس كتاب لغة، ولكنه دستور حياة ونبراس هداية.

وقد مضت سنة الله في خليقته أن يأخذها بقانون التخصص، كلٌّ فيما هو مُيَسَّرٌ له، فجعل لكل نصيبا من تكاليف الحياة، هو فيه أصيل، وبه موكل، وله مهيأ، وأيما عمل قد يصلح له، ويشارك به مما ليس من همه- فهو منه نافلة، يحفظها ويثاب عليها.

فلندع القرآن الكريم إذن بمكانه من الأفق الأعلى بين الطهر والإجلال والتقديس. ولنعد إلى النحو لا نعيبه ولا نستعدى عليه، فقد فعلنا من ذلك كثيرا، وأبلينا فيه بلاء الجد والوفاء، ولكنْ نعود إليه لنجعل من حفاوتنا به وجهادنا فيه حفاوة بلغة الثقافة وجهادا فيما تزخر به من كنوز المعرفة الكريمة في ماضيها الغابر وحاضرها الماثل.

فلنجمع لها أمرنا إذن، ولنقبل عليها نبعثها من مرقدها ناضرةً نديَّةً، وننشرها في الناس دانيةَ الثمار، ميسرةَ الأسباب، لا نبخل بها على أحد من أبنائها، ولا ننس في هذه العَزْمَةِ المباركة إن شاء الله أنَّ

---

(1) سورة القمر الآية ٨.

ثَمَّــة آفتين ملعونتين تتربصان بها، ولا أرى بعيدا- إن غفلنا عنهما أو قصرنا فى القضاء عليهما- أن تفسدا علينا أمرنا، وأن تجعلا من جهدنا فيه عملا ضائعا وعبثا فارغا.

وأعنى بالآفتين «الأمية والعامية»- أعاننا الله عليهما- فالأمية سمة التخلف، ومباءة الجهالة وعار الأمم. والعامية وباء شــره مســتطير، ومصــاب الثقافــة منه عظيم. فعلينا بهما نســتنقذ الحيــاة الفاضلة من وبالهما، غيرَ وانين ولا مقصرين.

لقد صبرنا على العامية طويلا، وسكتنا عنها كراما، فنمت وازدهرت وراحت تزاحم الفصحى، وتنازعها القول فى كل مقام للكلام فيه مجال، حتى أصبحت لغةَ التدريس والمحاضرة، ولغةَ الإعلام والتوجيه، ولغةَ السياســة والأدب، بهــا تكون الخطابة فى الشــئون العامــة والمطالب الكبرى، لا يكاد يُعدل عنها إلى الفصحى الخالصة إلا نادرا.

ولقد خُيِّل إلى حماة العامية ونصرائها أنهم قادرون على إعلاء شأنها ونفــى الشــين عنها إذا هم بدلوا بأسماء بعــض معالمها أسماءً من بعض معالم الفصحى، فسموا الزجل شعرا، والزجَّال شاعرا، كأن الأسماء فى رأيهم تعمل عمل أصحابها فى كل ما يبغون منها أن تكون.

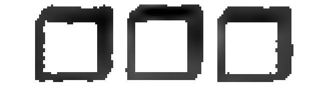
وهذه المنظومة- التى يســمونها النشــيد القومى- قد حلت فى غفلة الزمن محل نشيد كريم، فهى تنشد فى المحافل والمناسبات ذات الشأن برغم ما يعيبها من عامية، وتحريف، واضطراب فى الوزن.

وقد تقدمت في مؤتمر العام الماضي أوصي بها أن تعرض على شاعر من شعرائنا المكرمين ليقوم عوجها وينفي معايبها إذا كان حتما أن نبقي عليها، لا نبغي بها بدلا من الأناشيد التي نظمها بعض شعرائنا المقدَّمين، مثل نشيد شوقي، أو الرافعي، أو العقاد.

غير أن العامية حمتها، وأبت إلا أن تظل على حالها خلقًا سقيمًا، ولم لا ؟

أليست هي لغة العِلْيَة وأصحاب الجاه، لا يمتنع عليها مطلب، ولا يُمَس في حماها مستجير؟

أما بعدُ، فإنّي أعتقد أن اللهّ تعالى إذ يرضى عن مسعانا للثقافة، وإذ يقدر له أن يؤتي ثمره المُرَجَّى، نشرًا للثقافة، وتمكينًا لها - نكون يومئذ بمطلع عصر مزهر، تتفتح فيه القلوب، وتُهذب الأذواق، وتَرِقُّ المشاعر، وتَعْذُب الألسنةُ. ويومئذ تخفُّ مئونةُ النحو، ويصبح في القليل الصالح منه كفاية وغناء.



المحتويات

الصفحة

يصدر قريبا

الحسد من المنظور الإسلامى والأدبى
د. أحمد عبد الوارث

شخصيات
أ. محمود عوض

الاشتراكات

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.
- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف

يضم هذا الكتاب القيم بحوثا فى مجال الدراسات اللغوية القرآنية للعلامة الأستاذ على النجدى ناصف أحد رجالات العلم الموسوعيين المخلصين تيسيرًا للوصول إلى قضايا قرآنية غاية فى الأهمية عزَّ أن يوجد ما يدانيها أو يطاولها صحة منهج وبراعة استدلال واستقامة إسلوب.

وقد جمع هذه المادة وقدم لها بمقدمة تكشف عن جوانب الأستاذ النجدى مبينا أعماله جهدا وتصنيفا وترتيبا الأستاذ الدكتور مدحت يوسف السبع الحائز على دكتوراه فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة.

وهذا هو الجزء الثانى من هذا الموضوع العظيم وهو المكمل للجزء الأول الذى أخرجه الأستاذ على النجدى بنفسه من قبل



دار المعارف
٤٠٨٠٠٣/٠١

